وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الانبار / كلية الآداب
قسم التاريخ
الدراسات العليا

الحروب الصليبية

الأستاذ الدكتور
عبد الستار مطلك درويش

1438-1439هـ

2017-2018م

طباعة أكرم عبد داود الخليفاوي

مصادر الحروب الصليبية

تنوعت المصادر التي عنيت بالحروب الصليبية وهذا التنوع عائد الى ان المشتركين فيها كانوا يمثلون الغرب المسيحي من جهة والشرق الإسلامي من جهة أخرى.

وفيما يخص الطرف الأول فقد دونوا تاريخ الحروب الصليبية باللغة اللاتينية القديمة، كما دونوا باللغة الفرنسية والإنكليزية والإيطالية وغيرها من اللغات.

كما دونت المعلومات باللغة الاغريقية والارمنية والسريانية والفارسية، ولعل اهم المصادر وأكثرها قيمة تلك الرسائل والوثائق المتبادلة بين أطراف عدة حيث تضمنت معلومات دقيقة قلما نجدها في المصادر التاريخية مثل المراسلات بين البيزنطيين وصلاح الدين الايوبي سنة 581هـ حول مشروع التعاون بينهما في عملية التصدي للصليبيين وكذلك الخطاب الذي وجهه البابا هنريوس الثالث سنة 618هـ الى مندوبه المصاحب للحملة الصليبية الخامسة فقد اوصاه بحسن التعامل مع بوهمند الرابع امير انطاكية حتى يضمن مساعدته ولكي لا ينفر من الصليبيين ويرتمي بأحضان المسلمين. ومما يؤخذ على هذا النوع من المصادر وتحيزها الواضح والتحزب لأبناء قومهم، هذا فضلاً عن تمجيد بعض قادة الحروب الصليبية مثل بوهمند وتنكرد وغيره.

اما المصادر العربية الإسلامية فتعد الأهم والاغزر في مجال تقديم المعلومات العلمية الدقيقة المتعلقة بالحروب الصليبية وهذا عائد الى سببين:

1. ان المصادر اغزر انتاجاً فيما يتعلق بموضوع الحروب الصليبية وهذا عائد الى تطور الوعي التاريخي لدى العرب المسلمين.
2. تعد المصادر العربية اكثر حيادية من غيرها وهذا نابع من روح التسامح الإسلامي وموقف المسلمين من الملل والطوائف الغير إسلامية

1- العماد الكاتب الاصفهاني، أبو عبدالله محمد بن صفي الدين محمد بن حامد (ت597هـ):-

يعتبر هذا المؤرخ من ابرز كتاب عهد صلاح الدين ومن اكثرهم صحبة له، وقد أحاط بثقافة عصره ومارس وظائف عدة في ديوان الانشاء والسفارات.

التحق بصلاح الدين في دمشق واعتمد عليه حتى صارت مكانته تضاهي مكانة الوزراء تعرف على القاضي الفاضل الذي كان الشخص الأقرب الى صلاح الدين، وتوطدت أواصر الصداقة بينهما ودارت مراسلات ومحاورات أدبية لطيفة بينهما ووصفه القاضي الفاضل بقوله « العماد كالزناد الوقاد »

صنف العماد مجموعة من الكتب عددها عشرين كتاباً، اكثرها في التاريخ والشعر، بعضها تناول الفترة التي سبقت عهد صلاح الدين، والتي تناولت فترة صلاح الدين كتاب (الفتح القسي في الفتح القدسي) و (البرق الشامي) لازم العماد صلاح الدين في سلمه وحربه وقد صحبه في زياراته التفقدية الى شمال الدلتا للاطلاع على تحصينات الثغور المصرية، واستعرض الاسرى الصليبيين وشهد مع صلاح الدين معركة بيت الاحزان وحطين وفتح الساحل الشامي وكتب كتب المستأمنين الصليبيين كما كتب البشائر الى الأقاليم بالنصر قال في فتح القدس (كتبت اليوم سبعين كتاب بشارة كل كتاب بمعنى بديع) وفي معركة عكا الطويلة قام بدور المراسل الحربي من الدقة في الرواية والاخبار عنها.

يتصف أسلوب العماد بالتعقيد والتكلف فكتاباه مملوءان بالسجع والمحسنات اللغوية من تورية وجناس وطباق وتنظير، كما عمد الى أسلوب الاقتباس من القرآن الكريم كما أكثر من الشعر والنثر. وتأتي أهمية كتابّي العماد وهي عبارة عن يوميات الحرب يرويها شاهد عيان يمتلك اقتداراً عالياً في ابراز الصور الواضحة ولهذا يعد الكتاب وثيقة تاريخية هامة لعصر صلاح الدين.

كان العماد ناقداً يحدد مواطن الضعف والقوة في جيش صلاح الدين. دون مشاعر المحاربين في البر والبحر واثناء القتال يوجه اليه.

2- ابن الاثير (ت630هـ)

ولد هذا المؤرخ في وقت كان الصليبيون قد استقروا في الديار الإسلامية، وكان الصراع مرير بين المسلمين والصليبيين.

ومن الاحداث المحلية التي شاهدها ابن الاثير في أواخر عصره سقوط الدولة الزنكية التي

عاش المؤرخ واسرته في كنفها ورعايتها، وكانت علاقة اتابكة الموصل غير ودية مع صلاح الدين الذي حاصر الموصل ثلاث مرات حتى الحق الاتابكية بدولته بموجب معاهدة 581هـ

كان لهذه الاحداث اثر كبير في تكوين صورة غير واضحة عن صلاح الدين، فكان ابن الاثير ينظر الى صلاح الدين نظرة ملؤها الشك في أهدافه وبظهوره بمظهر من لا يهمه سوى اشباع نزعاته.

أ- الكامل في التاريخ:

وهو من التواريخ العامة وقد زودنا الكتاب بمعلومات وفيرة عن علاقة المسلمين بالصليبيين. اعتمد الأسلوب النقدي للأحداث، واعتمد في تدوينه على موارد مهمة ومعاصر وخاصة ابن القلانسي، هذا فضلاً عن الروايات الشفوية التي سمعها عن ابيه، كما استفاد من العماد الاصفهاني وابن شداد.

ومما يؤخذ على ابن الاثير ميله الى اتابكة الموصل وعدم ميله لصلاح الدين وكان يورد بعض الاخبار عن صلاح الدين في محاولة للتقليل من دوره ومكانته وبراعته العسكرية والإنجازات التي حققها من دون ان يذكر الاسناد ومن دون ان يذكر أسماء الرواة.

ب- التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية:

كرس هذا الكتاب لأخبار اتابكية الموصل ولا يمتاز بأهمية خاصة وان المؤلف كرر معلوماته بعد الاختصار، وجاءت مطابقة لما ورد في الكامل في التاريخ. ويؤخذ على هذا الكتاب بأنه استعراض لتاريخ اتابكية الموصل حاول ان يجمل صورتهم ولم يشأ ان يجرح مشاعر ملوك الموصل او يخدش كبريائهم. أبرز دور الزنكيين في تكوين النواة الاولى لجبهة المقاومة الإسلامية.

3-ابن شداد بهاء الدين يوسف بن رافع (ت632هـ)

ولد ونشأ في الموصل ثم ارتحل الى بغداد واقام بالمدرسة النظامية وعمل معيداً فيها مدة أربع سنين عاد بعدها الى الموصل سنة 569هـ وعمره ثلاثين سنة ليدرس في المدرسة

الشهرزورية. تمتع ابن شداد بالحكمة والاتزان في التفكير ولهذا عهد اليه الأتابك بمهمة السفارة الى الخليفة العباسي والى صلاح الدين الايوبي، واثناء عودته من الحج 583هـ زار بيت المقدس التي استعادها صلاح الدين في ذات السنة فاستدعاه صلاح الدين وعرض عليه البقاء معه فوافق ابن شداد على طلبه.

وعلى الرغم من حبه واعجابه بصلاح الدين الا انه كتب عنه بنزاهة وصدق بعيداً عن التحيز الشخصي.

يعد ابن شداد مؤرخاً منفرداً في رواياته للأحداث إذ يعد شاهد عيان وتكاد تكون اغلب رواياته متآتية من المشاهدة، فضلاً عن موارد أخرى لرواة ثقات. ودون الفترة التي سبقت عمله مع صلاح الدين 565-584هـ استناداً الى روايات سمعها من ثقات فضلاً عن اعتماده على مصادر موثوقة. وامتازت مدوناته عن هذه الفترة الاختصار حتى ان فتح القدس ذلك الحدث الكبير والمهم لا يأخذ من كتابه سوى صفحة ونصف وهكذا بالنسبة لبقية الحوادث في حين كان يسهب في ذكر الحوادث التي رواها كشاهد عيان فقد روى احداث تسعة عشر عاماً التي رواها عن غيره في خمسين صفحة اما اخبار خمس سنوات فقد اشتملت على اكثر من مائة وستين صفحة.

يعد ابن شداد مؤرخاً واقعياً كتب بصدق ودقة متناهية وبأسلوب ممتع بعيداً عن الزخرفة اللغوية. ويعد الكتاب ذو أهمية بالغة حتى انها ترقى الى مستوى الوثائق التاريخية منها نصوص الخطابات المرسلة من قائد الأرمن الى صلاح الدين او مراسلة الامبراطور البيزنطي لصلاح الدين وذكر تفاصيل صلح الرملة والبنود التي اتفق عليها الطرفان كتابه (النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية).

4-أسامة بن منقذ (ت584هـ) كتابه (الاعتبار):

احد امراء بني منقذ العربية التي حكمت مدينة شيزر التي تقع بجوار مدينة حماة، وكانت امارة بني منقذ مجاورة للصليبيين وعلى اتصال بهم في عهود الحرب وعهود السلم فعرفهم أسامة بن منقذ عن قرب وكانت له زيارات متعددة للإمارات الصليبية ودون مشاهدات في كتابه

(الاعتبار) الذي يوليه الباحثون أهمية كبرى لأنه شهادة مؤرخ معاصر ثاقب النظر موضوعي في ذكر مناقب الافرنج ومثالبهم على السواء.

قضى شطراً من حياته متنقلاً بين البلاط الفاطمي والقاهرة وبلاط نور الدين محمود في دمشق وعاش في مصر وقت عصيب وتحدث عن الحوادث المرعبة التي عايشها في فترة الصراع التي دارت بين الوزراء في أواخر العصر الفاطمي وعاصر صلاح الدين الايوبي، وكتابه ليس ككتب التاريخ الأخرى بل هو عبارة عن مذكرات امير وفارس سجل انطباعاته عن الاحداث بأسلوب امتاز بالبساطة والصدق.

5-الملك المنصور الايوبي، محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب (ت617هـ) مؤلف كتاب (مضمار الحقائق وسر الخلائق):

يعد المؤلف شاهد عيان للاحداث التي دونها وقد امتاز الكتاب بالدقة ان ما يؤخذ عليه انه كان بمثابة كتاب اعلامي اريد منه خلق الدعاية وذكر مناقب عم والده ومدح والده والعلاقة الحميمة بينهما من اكتمال الكتاب وحضوره، الا ان المؤرخين المعاصرين لم يذكروا كتاب (مضمار الحقائق) بين مصادرهم ولم ينقلوا عنه وذلك لأنهم نظروا اليه ككتاب اعلامي لا كتاب تاريخي يعول عليه.

6-ابن القلانسي، أبو يعلى بن اسد التميمي (ت555هـ):

يعد كتابه ذيل تاريخ دمشق واحد من الكتب المهمة في تاريخ الشرق الأدنى وبلاد الشام وعلى وجه الخصوص مدينة دمشق إذ شكلت هذه المدينة محوراً للحوادث التي عايشها.

كان ابن القلانسي من رجال دمشق الرسميين إذ تولى ديوانها مرتين وقد اتاحت له هذه الوظيفة الفرصة للاتصال المباشر باحداثها السياسية ويعد كتابه مهم جداً لتاريخ نور الدين محمود واسهاماته السياسية والعسكرية وقدم المؤرخ عمر رضا عرضاً ممتعاً بجهود النوريين ثم تلاه بالحديث عن قيام الايوبيين. وصف مدينة دمشق واحداثها وصفاً دقيقاً متآتي من معيشته وخبرته.

7-القاضي الفاضل (ت596هـ):

شغل وظائف عدة في أواخر العهد الفاطمي واتخذه صلاح الدين وزيراً ومستشاراً ونائباً عنه في حكم مصر ودمشق، دون مشاهداته في تاريخه المعروف في مجموعة من (متجددات) وهي سجل للوقائع التي رآها ودونها، وكذلك مجموعة من الرسائل والتعليقات دونها في مجلدات ولقد نقل عنه المؤرخين الكثير من المعلومات التي دونها مثل أبو شامة والنويري والمقريزي والقلقشندي، وقد شكلت مروياته المادة الأساسية لأبو شامة في كتابه الروضتين فألحقه بمجموعة من نثر هذا الكتاب البارع بأسلوبه المسجع البديع ولولا كتاب أبو شامة لضاعت جهود القاضي الفاضل ورسائله في ميادين السياسة والحرب والادب فصار كتاب الروضتين اهم مصدر لدراسة مكانة ومواقف رجل دولة صلاح الدين الأول بعد ان ضاع معظم كتاباته ولم يبقى منها سوى بعض المقتطفات.

8-أبو شامة، عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي (ت665هـ):

ولد أبو شامة في ظل الانقسامات التي شهدتها الدولة الايوبية، وهو مقدسي الأصل دمشقي المسكن حيث لم يغادرها الا في رحلات صغيرة وقصيرة الى الحج او لزيارة بيت المقدس وقام بزيارة مصر فعاد منها ومات ودفن في دمشق.

اعتمد في تدوين كتبه على موارد شتى منها كتب المؤرخين الثقات وقد عمد على ذكرهم واحداً واحداً، كما استعان بالوثائق التي حصل عليها من مصادرها الرسمية ونقلها بنصوصها واخبارها التي ارخت وخلدت معارك صلاح الدين او التي تعني السلطان وتبشره بالنصر وبعودته المظفرة الى دمشق كل مرة.

ولعل ابرز المزايا لكتب أبو شامة انها ضمنت واعتمدت على كتب ورسائل مفقودة مثل جزاء كتاب (البرق الشامي) وكتب ابن ابي طي ورسائل القاضي الفاضل.

أبرز كتبه:

أ- اخبار الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية

ب- عيون الروضتين وهو اختصار لكتاب الروضتين ويتضمن اخبار المدة من 521-610هـ الذيل على الروضتين: وهو تراجم لرجال القرن السادس والسابع الهجري.

9- ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم (ت697هـ):

مؤرخ شامي من مدينة حماة أرخ للدولة الأيوبية منذ بدايتها الى نهايتها في كل من مصر والشام والجزيرة. وقد شهد المؤلف تفكك الدولة الأيوبية ووصول جيوش المغول وعاصر دولة المماليك، فكان شاهد عيان على تلك الاحداث التي عاصرها.

اخذ عن الكتب التي سبقته في تدوين الكتاب كما دون الاحداث التي عايشها، تضمن الكتاب على عدد من الوثائق الرسمية ومعظمها مكتوب بقلم القاضي الفاضل والعماد الكاتب مثل الرسائل المتبادلة بين صلاح الدين والخليفة الفاطمي وبين اخوته في مصر او اليمن وبينه وبين افراد البيت الاتابكي الزنكي اسم كتابه (مفرج الكروب في اخبار بني أيوب)

10-احمد بن إبراهيم الحنبلي أبو البركات عز الدين العسقلاني المصري (ت876هـ)

كتابه (شفاء القلوب في مناقب بني أيوب):

كرس الكتاب للحديث عن تاريخ الاسرة الأيوبية لكنه جعله على شاكله كتب التراجم فالطبقة الأولى من كتابه تتحدث عن أولاد شادي جد صلاح الدين، والثانية أولاده والثالثة أولاد أولاده وهكذا الى اخر الكتاب باستثناء سيرة صلاح الدين، فقد اتبع فيها المؤلف نظام الحوليات وضمت اكثر من ثلث الكتاب. ركز على الجانب السياسي البحت بحيث اعتمد على كتب من سبقه من المؤرخين.

11-ابن العديم (ت660هـ):

كتابه زبدة الحلب في تاريخ حلب

مثل الكتاب تاريخ مدينة حلب وقد اعتمد المؤلف على المنهج الحولي في تناول تاريخ المدينة ودراسة علاقتها بالصليبيين عبر محور مدينة حلب وانطاكية.

يعد هذا الكتاب من أبرز المصادر الإسلامية التي تناولت العلاقة بين المسلمين بشكل عام واهل حلب بشكل خاص مع الصليبيين توقف المؤلف عن الكتابة سنة 641هـ لإنشغال الكتاب بأحداث وتطورات الحروب الصليبية.

تكمن أهمية الكتاب ان كاتبه معاصر للأحداث ومثل الجانب الحلبي في المفاوضات السياسية التي كانت تعقد معها وخاصة منها الحلف الرباعي الذي عقد بين حلب وحمص وحماه ودمشق ضد الملك الكامل حاكم مصر.

الحروب الصليبية

ان تسمية الحروب الصليبية التي وقعت مابين المحاربين القادمين من اوربا الى البلاد العربية فالبعض يصطلح على تسميتها بالحروب الصليبية على اعتبارها الحرب الدينية بين الإسلام والمسيحيين لأن المشاركين في هذه الحملات كانوا قد حملوا الصليب كما انهم قد خاطوا الصليب بالقماش على صدور المحاربين والبعض يسميها بحروب الفرنجة واعتبر هذه الحروب هي حروب بين الشرق والغرب، ونلاحظ بأن الحملات الصليبية قد تعددت وكانت اول هذه الحملات سنة 1095م واستمرت الى 1291م وشمل الرقم الأخير خروج الصليبيين من اخر معقل لهم في عكا.

بلغت الحملات الصليبية ثمان حملات اتجهت أربعة منها الى بلاد الشام (الأولى – الثانية – الثالثة – السادسة)، اما الحملة الخامسة والسابعة اتجهت الى مصر، والحملة الثامنة نزلت بتونس اما الحملة الرابعة فأحتلت القسطنطينية وهناك عدد لا يحصى من الحملات الصغيرة حتى انه لا تمر سنة من السنوات الا وخرج فيها بعض الصليبيين حتى ان بعض المؤرخين يرون بأن الحروب الصليبية لا زالت مستمرة ولم تنتهي في التاريخ الذي حددناه انفاً (1291م) فأعتبروا الصراع بين العثمانيين واوربا هو جزء متمم للحروب الصليبية

يعد جزء من الحروب الصليبية وما تتعرض له بلدان المشرق العربي وعلى وجه الخصوص الحملة ضد ليبيا والحملة الأطلسية ضد العراق هي جزء من المخططات الصليبية بغية تعميم دور المواطن العربي المسلم الحضاري والعلمي والديني لأنهم لا يريدون لشعوب هذه المنطقة ان تتبوأ مكانة سياسية ولا يريدون للدين الإسلامي ان ينتشر فأذن مساعيهم هي صراع مزيد من حيث الابعاد والزمن بين الشرق والغرب في العصور الوسطى والدور الذي لعبته الكنيسة مركز النظام الاقطاعي في اشعال الحرب.

ومن خلال القاء الضوء على مقدمات هذه الحروب يتضح لنا من ان هناك أوضاع أدت الى قيام الحروب الصليبية تشتمل على أوضاع اوربا وعلى أوضاع العالم الإسلامي وما كان يعانيه من ضعف والبعض يرى ان سقوط الاندلس يعد فصلاً من فصول النزاع بين الشرق والغرب أذن الحروب الصليبية نتجت عن أسباب اجتماعية واقتصادية وسياسية ودينية التي سادت اوربا في القرن الحادي عشر الميلادي واتخذت اوربا من استغاثة الامبراطور البيزنطي ستاراً دينياً لكي تخرج من مأزقها وسوف نعرض هذه العوامل والأسباب.

❖ العوامل التي أدت الى قيام الحروب الصليبية

1. القرن الحادي عشر شهد توطيد النظام الاقطاعي وسادت مؤسساته ارجاء اوربا الغربية وفرنسا وانكلترا وألمانيا.
2. ظهور المدن وتنامي العلاقات التجارية أدت بالتالي الى ظهور مدن أخرى وهذا أدى الى تراجع الاقتصاد المحلي الذي كان ابرز سمات الاقتصاد الغربي حيث كانت الاقطاعية هي وحدة الإنتاج المركزي مكتفية ذاتياً بما تنتجه.
3. ظهور النقود في التداول اليومي بدل النظام القديم (المقايضة) وهذا أدى الى تغير في مستوى حاجات الطبقتين الرئيسية في المجتمع الأوربي ساد الاقطاعيون والنبلاء والاقنان فقد كان الاقطاعيون يكتفون بالواردات العينية واعمال السخرة من الاقنان ولكن ظهور المدن ونمو الحركة التجارية أدى الى تعاظم حاجياتهم وهذا أدى الى فرض الضرائب النقدية بدل العينية وبالتالي ارهق هذا النظام الفلاحين والاقنان.

4. الحروب الداخلية المستمرة بين الامراء والاقطاعيين التي عمت انحاء غرب اوربا فالقرن العاشر والحادي عشر كانت عاملاً مهماً في تدهور أحوال الريف واستشراء الفوضى بسبب فقدان الدولة القوية.
5. سوء المواسم الزراعية بسبب الكوارث الطبيعية فعمت المجاعات ارجاء الريف ولجأ الناس الى اكل الحشائش وانتشرت حالة العوز والقحط ورافقتها انتشار الأوبئة.
6. غارات عصابات الفرسان المستمرة أدت هذه العوامل الى خروج عدد كبير من الفلاحين من القرى والارياف الى المدن وهذا أدى الى تطور اجتماعي خطير يتمثل في ظهور حالة التقشف.

الشي الثاني : ظهور ما يعرف بالزهد الديني وانتشار الخرافات والاعتقاد بالقوة الغيبية والنظرة الى الظواهر الطبيعية وكأنها علامات خارقة ايضاً اشتداد الهوس الديني وروح الشك بين الفئات الدينية في المجتمع.

وهذا أدى بالتالي الى استعداد عامة الناس لفكرة المآثرة الدينية وان تعاظم الميول الدينية كانت مقرونه بحياة البؤس والعوز وسيطرتها على الفلاح شعور بسبب الجهل إن الكوارث الاجتماعية والطبيعية ما هي الا عقاب من السماء بسبب خطايا مجهولة ولذلك انبثقت المشاعر الغامضة ولا يمكن التخلص منها الا بطلب الرحمة من الرب عن طريق تحقيق مأثرة دينية بطولية بالتكفير عن الذنوب عن طريق الاستشهاد.

7. اما فيما يتعلق بالطبقة الاقطاعية فأن الأوضاع الاقتصادية المتدهورة حسنت مصالحهم بشكل مباشر فالنظام الاقطاعي ارتبط بالأرض وفق ما يعرف بنظام البكورة وهذا النظام يقضي بأن تكون ملكية الاقطاعية بعد وفاة المالك الأصلي للأبن الأكبر اما سائر الأبناء الاخرين فيتقاسمون فيما بينهم الأموال المتروكة والاسلاب الأخرى فظهرت لنا اعداد كبيرة من هؤلاء المحرومين من الملكية الاقطاعية وفق نظام (البكورة) فسعى هؤلاء الى اثارة المشاكل والى تكوين ما يعرف بعصابات الفرسان ومارسوا عمليات سلب ونهب على الاقطاعية كما انهم لجأوا الى العنف المسلح واصبح القتال حرفة لهم فقاموا يجوبون القرى وينهبونها وكل ما تقع عليه

أيديهم والى جانب عمليات السلب والنهب عمدوا على قتل الاسرى واشعال النيران في القرى وقطع الطرق وسلب المسافرين كما شن هؤلاء الغارات على الاقطاعات الكبيرة وخاصة اقطاعيات الكنيسة وشملت هذه العمليات المزارعين والتجار والمسافرين ولكن الضرر الأكبر وقع على الكنيسة وهذا الامر اقلق الوسط الاقطاعي وبدأوا بالتفكير بشكل جدي للخروج من هذه الازمة واخذت الكنيسة على عاتقها مهمة اصلاح الأوضاع العامة التي سادت اوربا بسبب هذه العوامل التي أدت الى القحط والعوز والبوار في المواسم الزراعية فضلاً عن حالات القتل والسلب والنهب فلذلك عمل رجال الدين والطبقة الارستقراطية الى تقوية سلطات الكنيسة ونفوذها فنشطت الاديرة الى اجراء إصلاحات مهمة هدفها:

أ-إعادة هيبة البابوية

ب- تحقيق اشراف مركزي على الكنائس من قبل البابوية عن طريق ربط الفروع بالأصل في اوربا

ت- السعي لتقليل العمليات الحربية بأصدار ما يعرف بالعمدنة الربانية التي منعت فيها القتال من مساء يوم الخميس حتى صباح يوم الاثنين وايام الأعياد والصيام

ولكن هذه لم تلق النجاح الواضح بسبب تعنت الفرسان الاقطاعيين ولذلك لم تنجح الكنيسة ولا الإصلاحات من تحقيق نتائج جديدة في هذا المجال لذا بدأت الكنيسة تفكر في الحروب الصليبية على اعتبارها خير وسيلة لأبعاد هؤلاء المارقين على القانون والعابثين في أوضاع تلك المجتمعات في اوربا

8. ظاهرة الحج الى الأراضي المقدسة وهذه الظاهرة زادت بشكل ملحوظ في القرن الحادي عشر الميلادي

كان الحج الى بيت المقدس في القرن الرابع الميلادي فردي وكانت (اورشليم) بيت المقدس المكان الأفضل عند الحجاج حيث يعتقدون ان زيارتها تمحي الذنوب وكان الحجاج اذا عادوا الى اوربا يحتفظون برداء الحج لكي يكون كفن لهم عند وفاتهم

وفي القرن الحادي عشر زاد عدد الحجاج حتى بلغت 17 رحلة ضمت احداها اكثر من 11 الف شخص معظمهم من رجال الدين والفرسان وكانوا هؤلاء مسلحين على عكس الرحلات الأولى السلمية وهذا الامر ولد شعور بتخليص الأماكن المقدسة بقوة السيف من تبعيتها للدولة العربية الإسلامية وهذه الزيادة جاءت متزامنة مع زيادة الشعور الديني الذي عبر عنه ببناء (الكاتدرائيات) وتشييد الفنادق على جوانب الطرق لكي يرتادها الحجاج كما ساعد دخول هنغاريا الى المسيحية في القرن الحادي عشر في فتح الطريق البري الى الشام وهذه الرحلات أدت للتمهيد للحروب الصليبية.

9. كما مهد للحروب الصليبية الموقف بين الاسبان والعرب المسلمين وخسارة العرب للأندلس اذ زادتهم هذه الخسارة اصراراً في مواصلة مطاردة العرب وطردهم من فلسطين والاستيلاء على بيت المقدس.
10. كان هدف الكنيسة الغربية التوسع والعمل بنظام الكنيسة الشرقية الارثوذكسية.
11. كما شكل تقدم السلاجقة الى مشارف اسيا الصغرى في النصف الثاني من القرن الحادي عشر خسارتهم في معركة ملاذكرد سنة 463هـ اذا اخذت بيزنطة تسعى لطلب المعونة من الكنيسة الغربية لأنقاذها من الخطر السلجوقي

وفي مثل هذه الظروف تسلم البابا اوربان الثاني في سنة 1095م نداء الاستغاثة من الامبراطور البيزنطي كومنين يطلب فيه المساعدة العسكرية لإيقاف الزحف السلجوقي الإسلامي فوجدها البابا فرصة سانحة لتوحيد الكنيستين ولفرض سلطته على الأجزاء الشرقية فأتجه البابا الى فرنسا وزار الاديرة الكلونية ودعا لإعداد حملة صليبية الى الشرق واستقطبت زيارة البابا اهتمام الناس وعقد اجتماع في كلوي موفق وتوافد عليه آلاف من رجال الدين والفرسان وعامة الناس واستغرق الاجتماع أسبوع كامل من 18 الى 25 تشرين الثاني من سنة 1095م والقى البابا خطاب حماسي اما هذا الحشد بأسلوب بلاغي جذاب حتى هذا الخطاب عد بأنه اول نداء للحروب الصليبية وقد تضمن الخطاب الاتي:

1. دعا النصارى لحمل لسلاح ضد المسلمين.

2. تخليص قبر المسيح وبيت المقدس من ايدي (الكفار) المسلمين.
3. وعد المشتركين بغفران الذنوب والخطايا وبأنهم سوف يحصلون على الثواب الابدي في دار الخلود.
4. وعدهم بمنافع مادية تتمثل بالأرض التي سوف يستحوذون عليها وسوف توزع على شكل اقطاعيات ووصف هذه الأرض بأنها ارض العسل واللبن وأشار الى ان القدس هي محور الكون وارض خصب وعطاء ووصفها بأنها الجنة الثانية أي الجنة الأرضية.
5. وقال في خطابه اذهبوا فلا خوف على عوائلكم واموالكم انها تحت حماية الكنيسة أي ان موضوع عوائل المقاتلين واملاكهم في حماية الكنيسة.

ثم اخذ يتجول في الكنيسة وأرسل مبعوثين ينوبون عنه في الدعوة الى الحرب الى كل من جنوا وفينا.

ومن الذين استجابوا لنداء الحرب المؤمنين بثواب الاخرة الخياليون والمغامرون كما ان عدد كبير ممن اشترك في هذه الحملات من الرقيق والاقنان ومن الطبقات الذين سعوا لطلب الرزق وكما ان ممن اشترك في هذه الحرب التجار الذين كانوا يبحثون عن الشراء والاستثمار كما اشترك الاقنان للتخلص من عبوديتهم والمجرمون ممن التحق بهذه الحملات هرباً مما اقترفت ايديهم والرحالون والمشعوذين والسجناء الذين اطلقوا سراحهم من هذه الحملات والهاربون من العدالة كما اشترك في هذه الحملات المحرومين من ارث الملكية وفق نظام البكورة بحثاً عن اقطاعيات لهم في الشرق.

الأوضاع السياسية والاقتصادية في المشرق العربي عشية الغزو الصليبي

كانت المنطقة العربية عشية الغزو الصليبي تعاني من تفكك حاد وتفشي حالة الفرقة والنزاع بين الامارات والكيانات السياسية التي كانت قائمة آنذاك وخاصة في بلاد الشام والتي تمثل مسرح العمليات وكانت تعيش حالة من التعقيد في أوضاعها السياسية والاقتصادية والدينية. فقد كانت تحكمها قوى مختلفة وقد عصفت المنازعات بين هذه القوى.

اما الخلافة العباسية فكانت واهنة وقدراتها السياسية والعسكرية محدودة وخاصة بعد انتهاء عهد السلاطين الأقوياء (طغرل بك والب أرسلان وملكشاه) وعلى الرغم مما كانت عليه بغداد الا انها كانت حريصة جداً من اجل المحافظة على الشام على اعتبارها جزء لا يتجزأ من ممتلكات الخلافة.

اما مصر فقد كانت خاضعة للفاطميين وكانوا طامحين بضم بلاد الشام الى نفوذهم لأنهم كانوا يرون فيه امتداد طبيعي لمصر وقاعدة عسكرية متقدمة لصد هجمات الروم والعباسيين.

اما بالنسبة الى بلاد الشام فإنها كانت تضم قوى سياسية تسعى الى استغلال البلاد بعيداً عن نفوذ الخلافة العباسية او الانحياز للفاطميين في مصر. ولعل ابرز هذه القوى تتمثل بـ (بنو مرداس وآل الجراح والحمدانيين والكلابيين) واستمرت المنازعات في بلاد الشام بين بني مرداس والفاطميين وفي خضم الصراع قدم السلاجقة الى بلاد الشام واشتركوا في الصراع القائم وقد حصلوا على تأييد وطاعة المرداسيون وتمت الخطبة للخليفة العباسي والسلطان السلجوقي وهذا الصراع اضعف بلاد الشام سياسياً وفيما بعد احتدم الصراع بين السلاجقة والفاطميين فعهد ملكشاه السلجوقي الى قائده أشو الخوارزمي سنة 465هـ بالمسير الى الشام فنظم الرحلة وحاصر دمشق الى ان استسلمت سنة 488هـ واستمر الصراع بين السلاجقة والفاطميين حتى وصلت القوات السلجوقية الى داخل الأراضي المصرية ولرد هجمات السلاجقة عمد الأفضل بن بدر الجمالي الى تجهيز جيش فاطمي بغية تحرير الأراضي المصرية وابعاد الخطر السلجوقي وقد تمكن هذا الجيش من ابعاد الخطر عن الأراضي المصرية ومما زاد في تعقيد الوضع السياسي استقلال بعض امراء الغرب من بني مرداس وبني عقيل اذ كونوا امارتين هن الامارة المرداسية والعقيلية.

وفضلا عن هذا فإن بلاد الشام كانت عرضة لهجمات الروم البيزنطيين كما إن سنة 488هـ تعد سنة فاصلة بالنسبة للحياة السياسية لبلاد الشام إذ توفي فيها الأمير تاج الدين تتش وبوفاته ساءت الأحوال واضطربت بلاد الشام إذ كانت هذه السنة بداية لإنفراط عقد السلاجقة إذ اقتسم ابنه رضوان ووقعت بلاد الشام فأصبحت (حلب) للأمير رضوان والأمير دقاق استولى على (دمشق) ودخلا في صراع مستمر اججه الأتابكة بين الاخوين فضلاً عن استمرار النزاع بينهم وبين الفاطميين الذين مازالوا يحاولون استعادة نفوذهم على بلاد الشام فكل هذه الصراعات شتتت وحدة الامة ودمرت قدراتها السياسية والعسكرية واثرت تأثير كبير على أوضاع الناس فتردت الزراعة والصناعة وتردى الاقتصاد بسبب فقدان الامن والاستقرار وانتشرت المجاعات وسادت الفرقة بين ما بين الناس كنتيجة من نتائج القحط والعوز والبؤس كما ان هذه الصراعات جعلت من كل مدينة خصم للمدينة الأخرى وفي خضم هذه الصراعات دخلت أولى الحملات الصليبية الى بلاد الشام فإذن نستطيع القول بأن أوضاع العالم الإسلامي وبلاد الشام بشكل خاص أسهمت في نجاح الحملات الصليبية بسبب ما كانت تعانيه من اضطرابات سياسية والبعض يرى بأن الحملات الصليبية قد كانت دقيقة في توقيتها إذ وصلت في وقت ملائم جداً لدخولهم ولنجاح حملتهم فلو كانوا تقدموا قبل هذا الوقت بقليل لأبادهم السلطان ملكشاه السلجوقي ولو تأخروا لقذف بهم عماد الدين زنكي في البحر الذي جاؤوا منه.

ومن هذا نفهم بأن التوقيت الزمني كان ملائم بدخول الصليبيين في فترة الضعف والانحلال السياسي للمنطقة.

الحملات الصليبية

الحملة الصليبية الأولى

عقب الاجتماع الذي دعا اليه البابا اوربان الثاني سنة 488هـ/1095م فعقد العزم الى اعداد جيش نصراني لغزو ديار المسلمين وقد نصب البابا الاسقف اوهيتمار نائب عنه وقائد يومياً للحملة. وسارت جموع الصليبيين الى الشرق وسميت هذه الحملة بالحملة الصليبية الأولى وقسمت الى قسمين من حيث مسارها الى بيت المقدس ومن حيث تنظيمها: -

القسم الأول: -حملة الشعوب او العامة

القسم الثاني: -حملة الامراء

أ-الحملة الشعبية او العامة: -

وممن استجاب لدعوة البابا عدد من الأساقفة ورجال الدين الذين قاموا بجهود كبيرة من اجل الدعوة لهذه الحملة مستخدمين شتى أنواع الدعاية لهذه الحرب وكان على رأسهم (بطرس الناسك و ولتر المفلس) اللذين طافا في أقاليم فرنسا وحوض نهر الراين يدعون للحملة الصليبية فإستجاب لها عدد ضخم من الناس حتى وصلوا الى ما يزيد عن 25 الف من الفقراء والمعدومين ومن بينهم عدد كبير من النساء والأطفال واتجهوا صوب القسطنطينية وكونوا خمسة جيوش كبيرة وصلت منها مجموعتان فقط بينما تفرق الباقون او قتلوا اثناء الطريق بعد ان اساؤوا معاملة أهالي البلاد والمدن التي مروا عبرها حيث مارس هؤلاء عمليات السلب والنهب والاعتداء على الأهالي وكان طريقه من فرنسا الى صوفيا ثم أدرنه ومنها الى القسطنطينية التي وصلوها سنة 490هـ وكانوا على أسوأ حال بسبب افتقارهم للتنظيم والجهل التام بأبسط مبادئ القتال فما ان وصلوا القسطنطينية حتى بدأوا يتغيرون على سكانها بعدة حملات للسلب والنهب الامر الذي دعا الامبراطور البيزنطي (كومنيك) ان يأمر بتعبيرهم الى الجانب الشرقي للبسفور على الرغم من ان الخطة التي وضعت نصت بأن تبقى المجاميع بالقرب من القسطنطينية لأنتظار وصول الجموع الأخرى من المقاتلين وفي الجانب الشرقي من البسفور استمر الصليبيين في عمليات السلب

والنهب واقتربوا من مناطق السلاجقة الامر الذي دعا السلاجقة الى محاربتهم عندما بدأ خطرهم يؤثر على مدينة نيقيه إذ زحف الصليبيين سنة 1096م نحوها بجيش يتألف من 25 الف صليبي الا ان السلاجقة هاجموهم بغتة واوقعوا بهم هزيمة كبيرة ولم ينجح من الصليبيين سوى ثلاثة الاف صليبي هربوا بإتجاه القسطنطينية وظلوا تحت حماية الامبراطور البيزنطي وبهذا تكون هذه الحملة التي قادها بطرس الناسك و ولتر المفلس قد فشلت في تحقيق أهدافها.

ب-حملة الامراء

وهي تلك الحملة التي قادها عدد من الامراء لكل منهم جنده واتباعه ولكل منهم سياسته وهي بحق تعد مجموعة من التكتلات العسكرية لكل منها طموحاتها وقد تم الاعداد للحملة في نفس الوقت الذي تم فيه الاعداد لحملة الشعوب اما اهم المجموعات التي الفتها الحملة هي

(المجموعة الأولى)

وكانت بقيادة جون افري واخيه بلدوين وعدد اخر من الامراء وهي اول مجموعة نظامية وصلت الى حدود الدولة البيزنطية في ذي الحجة من سنة 490هـ/1096م وعقد جون افري اتفاق مع الامبراطور البيزنطي نص على ان يلتزم جون افري بمنع اتباعه من التعدي على السكان المحليين وان لا يمارسوا عمليات السلب والنهب داخل الأراضي البيزنطية وبالمقابل تعهد الامبراطور بإمداد الحملة وتموينها حتى يصلوا الى ساحة المعركة. وفي نيسان من سنة 1097م امر الامبراطور بتعبيرهم الى الشاطئ الاسيوي واستقروا بإنتظار المجاميع الأخرى.

(المجموعة الثانية)

فكانت بقيادة الامبراطور (بوهمند المتودماني) وابن اخته الأمير تنكرد وعدد من الامراء النورمان الذين خرجوا من جنوب إيطاليا وصقلية ووصلت في 1097م الى القسطنطينية ودخل قائدهم في طاعة الامبراطور البيزنطي وتم تعبيرهم الى الجانب الاسيوي واستتروا مع المجموعة الأولى.

(المجموعة الثالثة)

بقيادة ريمون الرابع فما ان وصلت الى القسطنطينية حتى اقسم قائدهم بيمين الطاعة للامبراطور البيزنطي.

(المجموعة الرابعة)

بزعامة الأمير روبرت وليم الفاتح الذي اعلن الطاعة للإمبراطور وعبر المضيق الى اسيا الصغرى للالتحاق ببقية المجاميع لمهاجمة نيقيه عاصمة سلاجقة الروم والملاحظ ان هذه الحملة ضمت امراء متعددين كان لكل منهم طموحات واطماع محددة وعدم وجود قائد اعلى لهذه الحملة حتى بدت مفككة وثارت روح الانقسام بين الصليبيين وقد استغل الامبراطور البيزنطي هذه النزاعات وتعدد الزعامات الى عقد اتفاق مع رؤساء هذه المجاميع نص على إعادة الأراضي التي كان السلاجقة قد استولوا عليها من البيزنطيين ثم اندفعت الجموع الصليبية بأتجاه بلاد الشام منطلقة من مدينة (ازمير) ثم لحق بهم بطرس الناسك بمن بقي معه من حملة الشعوب واتفق الصليبيون على مهاجمة نيقيه عاصمة السلاجقة ومقر الأمير السلجوقي قلج أرسلان الذي كان غائب عنها فشددوا عليها الحصار ولما ضاق الامر بسكانها ارسلوا الى الامبراطور البيزنطي كومنين سراً يدعونه لأستلام المدينة شريطة ان يسمح لهم بالخروج مع نسائهم واطفالهم وممتلكاتهم فأجابهم الامبراطور وضم المدينة الى نفوذه سنة 490هـ/1097م وبهذا تكون مدينة نيقيه اول مدينة تسقط ثم سار الصليبيون من نيقيه وانقسموا الى قسمين بغية اجتياح الأراضي التي امامهم على ان يلتقوا عند (ضورليوم) واشتبكوا مع قلج أرسلان ثم ساروا فدخل الصليبيين مدينة (قولية) التي تخلى عنها السلاجقة ثم مدينة (هرقلة) ثم تداعت المدن الواحدة بعد الأخرى حتى وصلوا الى طرطوس وضموا كل من (الرها وانطاكية) الى نفوذهم بعد ان استخلصوها من يد الاميلا السلجوقي سنة 490هـ/1097م.

الحملة الصليبية الأولى :

ألقى البابا أوربان الثاني خطبة مثيرة في مدينة مونت الفرنسية في (26 من ذي القعدة 488هـ= 27 من نوفمبر 1095م)، ولم تكن تلك الخطبة موعظة أو دعوة إلى الإصلاح، بل كانت تحريضًا وإثارة للحقد والطمع في نفوس الأوروبيين، ودعوة للسلب والنهب، والاستيلاء على أرض الآخرين؛ حيث طالب بوجوب استرداد بيت المقدس من المسلمين، ومنّى المتطوعين في الحملة بحياة أفضل في الدنيا، وبغفران الذنوب إن ماتوا في ساحة القتال.

وكانت هذه الخطبة بداية لانطلاق الحروب الصليبية، ونقطة فاصلة بين عهدين شهدهما العالم؛ حيث استجاب لهذه الدعوة الطبقات الدنيا من الشعب، متأثرة بالدعاة الذين جابوا أوروبا لإثارة حماس الناس، وحميتهم الدينية، وكان بطرس الناسك أبرز هؤلاء الدعاة، فاستجاب له جحافل من العامة والفلاحين والرعاع، وقطاع الطرق واللصوص، متأثرين بفصاحة لسانه وبيانه، وشاركه في ذلك داعية آخر اسمه "والتر المفلس"، وخرجت هذه الجموع، وهي تمني نفسها بالحياة الناعمة والخير الوفير، وعرفت هذه الحملة في التاريخ بحملة الرعاع.

وارتكبت هذه الحملة في سيرها كل الموبقات من سلب ونهب وقتل واعتداء على الأعراض، واغتصاب بعض الراهبات، حتى وصلت إلى أبواب القسطنطينية، فسارع الإمبراطور البيزنطي إلى نقلهم عبر مضيق البسفور إلى آسيا الصغرى، وتخلص من شرورهم، وقابل السلاجقة هذه الجحافل وأوقعوا بهم هزيمة قاسية.

الحملة الصليبية الأولى

وبعد الفشل الذي مُنيت به الحملات الشعبية الصليبية، جاء دور الحملات الصليبية المنظمة التي يقوم عليها الفرسان والأمراء، والمزودة بالمؤن والسلاح والعتاد، وكان البابا أوربان قد حدد يوم (21 شعبان 489 هـ= 15 من أغسطس 1096م) موعدًا لرحيل الحملة، واختار القسطنطينية مكانًا لتجمع الجيوش الصليبية.

وتألفت الحملة الصليبية الأولى من أربع جماعات، واحدة منها بقيادة "جودي فري" البويوني، والثانية بقيادة "بوهيموند" النورماندي، والثالثة بقيادة "ريموند" اللوثرنجي، والرابعة بقيادة "روبرت" النورماندي.

ولما بلغوا القسطنطينية طلب منهم إمبراطورها أن يقسموا له بالولاء وإعلان التبعية له فاستجابوا له، ولم يكونوا صادقين فيما نطقت به ألسنتهم، وتعهدوا للإمبراطور البيزنطي بأنهم سيردون لدولته كل الأراضي البيزنطية، التي يتمكنون من الاستيلاء عليها من المسلمين، وتعهد الإمبراطور أن يقدم لهم يد العون والمساعدة من أجل تحقيق أهدافهم.

سقوط نيقية

بعد أن قضى الصليبيون بجحافلهم الجرارة في العاصمة البيزنطية أسبوعين تحت بصر الإمبراطور ورعايته، عبرت قواتهم إلى آسيا الصغرى، والتحم بهم ما بقي من حملة الرعاع التي قادها بطرس الناسك فاجتمع لهم عدد ضخم من الجند قدره المؤرخون بمليون شخص.

وتحركت تلك الجحافل الهائلة إلى مدينة نيقية، حاضرة الأمير السلجوقي "قلج أرسلان"، وضربوا حولها حصارًا شديدًا، فصمدت المدينة عشرين يومًا أمام هذا العدد الهائل، ثم سقطت في (3 رجب 490هـ= 26 من يونيو 1097م) وكان هذا أول انتصار للصليبيين في حملتهم البربرية الأولى، وما كادت تصل أنباء هذا النصر إلى أوروبا حتى عم الفرح والسرور، ونشط وصول الجند والإمدادات إلى الحملة.

وكان لهذا النصر أثر عظيم في ازدياد حماس الصليبيين، وارتفاع ثقتهم في أنفسهم، وقوى من هذا الإحساس نصر ثان حققوه على السلاجقة في (ضورليوم) وتابع الصليبيون زحفهم، يأخذون المدينة بعد الأخرى، حتى تمكنوا من إخضاع بلاد آسيا الصغرى كلها.

الزحف إلى الشام

بعد ذلك تقدم الصليبيون إلى بلاد الشام، وما كادت تصل أنباء هذه الغزو حتى اضطرب المسلمون في الشام، وأحسوا أنهم أمام خطر عظيم، وبدلاً من أن يوحدهم في مواجهته ظلوا على عداوتهم، عاجزين عن المواجهة، وفي الطريق إلى إنطاكية انفصل "بلدوين" أخو "جودفري" بقواته عن الجيش الصليبي في (ربيع الآخر 491هـ= مارس 1098م)، واتجه إلى إمارة الرها، واستولى عليها بطريقة غادرة، وأسس بها أول إمارة صليبية في الشرق العربي، وقبع بلدوين فرحًا بما حققه، ولم يعد يهتم بمساعدة جيش الحملة.

وواصلت الحملة إلى إنطاكية، ولما بلغتها فرضت على المدينة حصارا في (12 من ذي القعدة 490هـ= 21 من أكتوبر 1097م) وثبتت المدينة المحاصرة، وأبلى أهلها بلاء حسنًا في الدفاع عنها، وطال حصار المدينة حتى بلغ تسعة أشهر، وكان يمكن للفاطميين نجدة المدينة، وبدلا من أن يفكروا في مساعدة أهلها اتصلوا بالصليبيين، وحاولوا التفاهم معهم على اقتسام الأرض والنفوذ على حساب الأتراك السلاجقة الذين كانوا يحكمون تلك المناطق، وانتهى الحصار بسقوط إنطاكية في (رجب 491هـ= يونيو 1098م) وقيام بوهيموند النورماندي بالاستيلاء على المدينة، وتأسيس الإمارة الصليبية الثانية في الشرق.

على أبواب مدينة بيت المقدس

ثم تحركت باقي جموع الصليبيين نحو بيت المقدس بعد أن مكثوا نحو خمسة عشر شهرًا في شمالي بلاد الشام، نجحوا خلالها في احتلال كثير من المدن والقرى، وفي الطريق إلى بيت المقدس كان بعض الحكام المسلمين يدخلون في طاعة الصليبيين، مؤثرين السلامة ولم يكتفوا بذلك بل نزلوا على شروط الصليبيين بتقديم العون والمساعدة لهم، وتوالى سقوط المدن الساحلية

وغيرها في أيدي الصليبيين حتى بلغوا أسوار بيت المقدس في (15 من رجب 492هـ= 7 من يونيو 1099م)

وكان "افتخار الدولة" حاكم بيت المقدس من قبل الدولة الفاطمية قد اتخذ استعداده لمواجهة الصليبيين، فسمم آبار المياه وقطع موارد المياه، وطرد جميع من بالمدينة من المسيحيين لشعوره بخطورة وجودهم أثناء الهجوم الصليبي، وتعاطفهم معهم، وقوى استحكامات المدينة.

كانت قوات الصليبيين التي تحاصر المدينة المقدسة تقدر بأربعين ألفًا، وظلت ما يقرب من نحو خمسة أيام قبل أن تشن هجومها المرتقب على أسوار المدينة الحصينة، وكان الجند في غاية الشوق والحماسة لإسقاط المدينة، فشنوا هجومًا كاسحًا في يوم الإثنين الموافق (20 رجب 492هـ= 12 من يونيو 1099م) انهارت على إثره التحصينات الخارجية لأسوار المدينة الشمالية، لكن ثبات رجال الحامية الفاطمية وشجاعتهم أفشلت الهجوم الضاري، وقتلت الحماس المشتعل في نفوس الصليبيين، فتراجعت القوات الصليبية بعد ساعات من القتال.

كان موقف الصليبين سيئا، فهم يعانون العطش وقلة المؤن، وكان يمكن للحامية الفاطمية أن تشن هجومًا مضادًا على الصليبيين وهم في هذه الحالة من الإنهاك، فتستأصل شأفتهم وتقضي عليهم، لكنها لم تفعل ثقة منها في مناعة أسوارها، وعدم قدرة الصليبيين على الاستمرار وهم في هذه الحالة.

ثم شاءت الأقدار أن تصل سفن حربية من جنوه إلى يافا وتستولي عليها، وتمد الصليبيين بالمؤن والإمدادات والأسلحة والمواد اللازمة لصناعة آلات وأبراج الحصار، وكان لهذه النجدة فعل السحر في نفوس الصليبيين فقويت عزائمهم وثبتت قلوبهم، وطمعوا في النصر.

اقتحام المدينة

تأهب الصليبيون لمهاجمة أسوار المدينة بعد أن نجحوا في صناعة أبراج خشبية ومعها آلات دك الأسوار، وكانت تلك الأبراج تتكون من ثلاثة طوابق: الأول لفرق تدفع البرج من أسفل على

عجلات، والثاني مخصص للفرسان، والثالث لرماة السهام.. وعجّل من الإسراع بالهجوم ما وصل إلى الصليبيين من أن الوزير الفاطمي الأفضل الجمالي في طريقه من مصر على رأس جيش ضخم لإنقاذ مدينة بيت المقدس.

اختار الصليبيون أضعف الأماكن دفاعًا عن المدينة لمهاجمتها بأبراجهم الجديدة، ولم يكن هناك أضعف من الجزء الشرقي المحصور بين جبل صهيون إلى القطاع الشرقي من السور الشمالي وكان منخفضًا يسهل ارتقاؤه، وحرك الصليبيون أبراجهم إلى السور الشمالي للمدينة.

وفي مساء الأربعاء الموافق (21 من شعبان 492 هـ= 13 من يوليو 1099م) شن الصليبيون هجوما حاسما، ونجح "افتخار الدولة" في حرق البرج الذي اقترب من السور الواقع عند باب صهيون، ولم يملك الصليبيون إزاء هذا الدفاع المستميت والخسائر التي منوا بها سوى الانسحاب بعد يوم من القتال الشديد.

لكن هذا الفشل زاد الصليبيين إصرارًا، وأوقد الحماسة في نفوسهم لاقتحام المدينة، والاستيلاء عليها مهما كان الثمن، فشنوا هجومًا ضاريًا فجر يوم الجمعة الموافق (23 من شعبان 492هـ= 15 من يوليو 1099م)، واستمر القتال متكافئا حتى تمكن البرج المتبقي لهم من الالتصاق بالسور، وإنزال الجسر المتحرك الذي يصل بين قمة البرج وأعلى السور، فعبر خلاله الجنود واستولوا على جزء من السور الشمالي للمدينة، ونجح عدد كبير من المهاجمين في الاندفاع إلى المدينة، وولت الحامية الفاطمية الأدبار نحو الحرم الشريف حيث توجد قبة الصخرة والمسجد الأقصى، واحتموا بهما، وبذلك سقطت المدينة في أيدي الصليبيين بعد حصار دام أكثر من أربعين عامًا.

جرائم الصليبيين في بيت المقدس

وبعد أن دخل الصليبيون المدينة المقدسة تملكتهم روح البطش والرغبة في سفك دماء العزل الأبرياء، فانطلقوا في شوارع المدينة يذبحون كل من يقابلهم من رجال ونساء وأطفال، ولم تسلم المنازل الآمنة من اعتداءاتهم الوحشية، واستمر ذلك طيلة اليوم الذي دخلوا فيه المدينة.

وفي صباح اليوم التالي استكمل الصليبيون الهمج مذابحهم فقتلوا المسلمين الذين احتموا بحرم المسجد الأقصى، وكان أحد قادة الحملة قد أمنهم على حياتهم، فلم يراعوا عهده معهم، فذبحوهم وكانوا سبعين ألفًا، منهم جماعة كبيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ممن فارقوا الأوطان وأقاموا في هذا الموضع الشريف.

ويعترف مؤرخو الحملات الصليبية ببشاعة السلوك البربري الذي أقدم عليه الصليبيون، فذكر مؤرخ صليبي ممن شهد هذه المذابح وهو "ريموند أوف أجيل"، أنه عندما توجه لزيارة ساحة المعبد غداة تلك المذبحة لم يستطع أن يشق طريقه وسط أشلاء القتلى إلا بصعوبة بالغة، وأن دماء القتلى بلغت ركبتيه.

وكتبوا إلى البابا يفتخرون بما فعلوا دون وازع من خلق أو رادع من دين، فما لامهم ولا استنكر فعلتهم!

واختار الصليبيون جودفري حاكمًا على المدينة المقدسة، وراحوا يتطلعون إلى المزيد من الصليبيين الجدد من أوروبا، وأقاموا بطريركية رومانية، وصبغوا البلد بالصبغة الكاثوليكية.

وظلت مدينة بيت المقدس أسيرة حتى حررها صلاح الدين الأيوبي في (27 من رجب سنة 583هـ= 29 من أكتوبر 1187 م)، وكان سلوكه حين دخل المدينة فاتحًا يختلف تمامًا عما فعله الصليبيون من وحشية وسفك للدماء.

من مصادر الدراسة:

ابن كثير: البداية والنهاية . تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي . دار هجر . القاهرة (1419هـ= 1998م).

ابن الأثير: الكامل في التاريخ . دار صادر . بيروت . (1386هـ= 1966م).

سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية . مكتبة الأنجلو المصرية . القاهرة . 1982م.

فايد حماد محمد عاشور: جهاد المسلمين في الحروب الصليبية . مؤسسة الرسالة . بيروت (1405هـ= 1985م).

صلاح الدين محمد نوار: العدوان الصليبي على العالم الإسلامي . دار الدعوة . الإسكندرية . 1993م.

الحملة الصليبية الثانية

الحملة الصليبية الثانية كانت ثاني حملة صليبية رئيسية تنطلق من أوروبا، دُعي إليها عام 1145 كرد فعل على سقوط مملكة الرها في العام الذي سبق. حيث كانت الرها (إديسا) أول مملكة صليبية تقام خلال الحملة الصليبية الأولى (1096 – 1099) وكانت أول مملكة تسقط كذلك. دعا إلى الحملة الثانية البابا إيجونيوس الثالث، وكانت أول حملة يقودها ملوك أوروبا، وهم لويس السابع ملك فرنسا، وكونراد الثالث ملك ألمانيا، وبمساعدة عدد من نبلاء أوروبا البارزين. تحركت جيوش الملكين كل على حدة في أوروبا، وأخرهم بعض الشيء الإمبراطور البيزنطي مانويل الأول كومننوس؛ وبعد عبور الجيوش المناطق البيزنطية من الأناضول، هُزم كلا الجيشين على يد السلاجقة، كل على حدة. ووصل كل من لويس وكونراد وشراذم جيوشهما إلى القدس عام1148، وهناك إتبعوا نصيحة أثبتت كونها سيئة بالهجوم على دمشق.

كانت الحملة الصليبية الثانية إلى الشرق فشلا ذريعا للصليبيين، ونصرا للدويلات الإسلامية. وأدت نتائجها إلى سقوط القدس وقيام الحملة الصليبية الثالثة في نهاية القرن الثاني عشر.

كان النصر الصليبي الوحيد في تلك الحملة على الجانب الآخر من البحر المتوسط، حيث قام الصليبيون الإنجليز أثناء عبورهم للبحر بالسفن بالتوقف مصادفة قرب لشبونة، وساعدوا في السيطرة عليها عام 1147. وفي تلك الأثناء، في أوروبا الشرقية، كانت أولى الحملات الصليبية الشمالية لتحويل القبائل الوثنية للمسيحية قد بدأت، واستمرت تلك الحملات بعد ذلك لقرون.

بعد الحملة الصليبية الأولى، والحملة الصليبية الصغيرة عام 1101 أصبح في الشرق ثلاثة دويلات أو ممالك صليبية: مملكة القدس اللاتينية، إنطاكية والرها، وعام 1109 تأسست رابعة في طرابلس. كانت الرها تقع في أقصى الشمال نسبة للبقية، كما كانت الأضعف والأقل سكانا؛ وبذا كانت هدفا للهجمات المتكررة من الدويلات الإسلامية المجاورة من الأرتقيين والدانشمنديون، والسلاجقة. وأُسر الكونت بلدوين الثاني كما أُسر جوسلين من كورتينيا الذي سيصبح لاحقا كونتا بعد هزيمتهم في معركة حران عام 1104. كما أُسر بلدوين وجوسلين مرة أخرى عام 1122. وبالرغم من أن الرها تعافت إلى حد ما من معركة Battle of Azaz عام 1125، إلا ان جوسلين قتل في المعارك عام 1131. أما خليفته جوسلين الثاني فإضطر للتحالف مع الإمبراطورية البيزنطية. ولكن، وفي 1143، توفي كل من الإمبراطور البيزنطي يوحنا الثاني كومنينوس وملك القدس فولك من آنجو. كما تخاصم جوسلين مع مملكة طرابلس وإمارة إنطاكية، تاركا الرها دون حلفاء أقوياء.

في تلك الأثناء، قام عماد الدين زنكي حاكم الموصل بضم حلب إلى مناطق سيطرته عام 1128. كانت حلب مفتاح للسيطرة في سوريا، وكانت التنافس قائما عليها بين حكام الموصل ودمشق. فالتفت كل من زنكي والملك بلدوين الثاني إلى دمشق؛ فهزم بلدوين خارج أسوارها عام 1129. فتحالف حكام دمشق البوريون لاحقا مع الملك فولك عندما حاصر زنكي المدينة في 1139 و 1140، وكان يفاوض تفاصيل التحالف المؤرخ اسامة بن منقذ.

في أواخر 1144، تحالف جوسلين الثاني مع الأرتقيين وتحرك بكامل جيشه تقريبا من الرها ليدعم حاكم سلالة الأرتقيين فخر الدين قره أرسلان ضد حلب، فقام زنكي منتفعا من موت فولك عام 1143 بالإسراع شمالا لحصار الرها، فسقطت بين يديه بعد شهر في 24 ديسمبر عام 1144.

أُرسل مانسيس من هيرجيس وفيليب من ميلي وغيرهم من القدس ليساعدوا المملكة الصليبية، ولكنهم وصلوا متأخرين. واستمر جوسلين الثاني يحكم البقية الباقية من دويلته من تل بشير جنوب شرق تركيا الحالية. ولكن شيئا فشيئا سقط ما بقي من ملكه أو بيع للبيزنطيين. أما زنكي الذي مُدح في طول البلاد وعرضها كحامي العقيدة والملك المنصور. فأنه لم ينطلق في هجوم على ما بقي من مناطق الرها أو انطاكية كما كان يخشى الصليبيون. فالأحداث في الموصل أجبرته على العودة. ومرة أخرى وضع دمشق نصب عينيه، ولكنه إغتيل على يد أحد العبيد عام 1146 وخلفه في حلب إبنه نور الدين زنكي. حاول جوسلين إستعادة الرها بعد إغتيال زنكي، ولكن نور الدين هزمه في نوفمبر 1146.

ردود الفعل في الغرب

وصلت أنباء سقوط الرها إلى أوروبا بداية على يد الحجاج المسيحيين في بدايات 1145، وبعدها بمبعوثين من أنطاكية ، القدس وأرمينيا. وكان الأسقف هيو من دوقية جبلة في إنطاكية هو الذي أوصل الخبر إلى البابا أيوجينيوس الثالث. والذي أصدر مرسوما باباويا في 1 ديسمبر من ذاك العام، يدعو فيه إلى حملة صليبية ثانية. كما أخبر الأسقف هيو البابا عن ملك مسيحي شرقي، والذي ، كان يأمل الأسقف انه سينجد الدويلات الصليبية في الشرق: وكان هذا أول وثيقة يذكر فيها القس يوحنا. أيوجينيوس لم يكن له سلطة على روما، وعاش في منطقة فيتربو، ولكن مع ذلك، كانت الحملة الثانية أكثر تنظيما وتم إدارتها بشكل مركزي بشكل أكبر من الحملة الأولى. كان البابا يوافق على واعظين محددين، وقيدت الجيوش من قبل أقوى ملوك أوروبا. وكان خط مسير الجيوش مخططا مسبقا. في البداية تم إغفال هذه التخطيطات. وكان الملك لويس السابع ملك فرنسا يخطط لحملة صليبية جديدة بشكل مستقل عن الباباوية، الأمر الذي أعلنه لمجلسه في عيد الميلاد. ولكن لعل المرسوم لم يكن قد وصل إلى لويس بعد! وفي كل الأحوال فإن رئيس الدير سوجر ونبلاء آخرون لم يكونوا في صف خطط لويس. فإستشار لويس برنارد من كليرفو، والذي بدوره وجهه إلى البابا أيوجينيوس. وهنا أصبح لويس يعرف بشأن المرسوم بلا شك، وأصبح

أيوجينيوس داعما متحمسا لحملة لويس. تم إعادة إصدار المرسوم في 1 مارس 1146، و خوّل البابا أيوجينيوس برنارد من كليرفو أن يعظ وينشر الخبر في أنحاء فرنسا.

لم يكن هناك تعاطف مع الحملة على ما يبدو في تلك الفترة كذاك التعاطف الذي كان في عام 1095 و 1096. ولكن سانت برنارد، أحد أكثر الشخصيات المسيحية شهرة وإحتراما في ذلك الزمان، أوجد هذا التعاطف ونظّر لكون الحرب المقدسة وسيلة لمحو الخطايا والفوز بالنعمة والبركة. في 31 مارس، وبوجود لويس، وعظ برنارد لحشد كبير في سهل في فيزيليه. ففعل كلام برنارد المعسول وهو المعلم الجهبذ والخطيب البليغ فعله في الجماهير، فقام الرجال يصيحيون "الصلبان، إلينا بالصلبان!" ويروى ان القماش لم يكف لصنع صلبان للجماهير، فما كان من برنارد إلا أن مزّق لباسه الرهباني ليصنع منه المزيد من الصلبان. وعلى خلاف الحملة الصليبية الأولى فإن المغامرة الصليبية جذبت إليها الطبقة النبيلة والعائلات الإقطاعية، وذلك كإليانور من أكيتين، الملكة ؛ ثييري من ألزاس، كونت الفلاندرز؛ هنري الأول من شمبانيا، وكونت شامبانيا المستقبلي؛ أخو لويس؛ روبرت الأول، ألبانز من تولوز، وليام الثاني من نيفرز؛ وليم وليام من ويرني، إيرل سوريي الثالث، هيو السابع دي لوزيان؛ وعدد آخر من النبلاء وملاك الأراضي والأساقفة. ولكن الدعم الأكبر جاء من العامة. وكتب سانت برنارد للبابا بعد العظة بعدة أيام "فتحت فمي، تكلمت، وفي لحظة تضاعفت أعداد الصليبيين إلى المالانهاية. القرى والمدن أمست مهجورة. ونادرا ما تجد رجلا لكل سبع نساء، وفي كل مكان ترى أرامل أزواجهن ما زالوا على قيد الحياة".

قد تقرر ان تنطلق الحملة بعد عام، وان تتم التحضيرات في تلك الفترة وان يوضع مسار الرحلة للأرض المقدس. تلقى لويس وأيوجينيوس الموافقة والدعم من الحكام الذين ستمر الجيوش الصليبية عبر أراضيهم: غيزا ملك هنغاريا، روبرت الثاني من صقلية، والإمبراطور البيزنطي مانويل الأول كومنينوس، بالرغم ان كومنينوس أراد أن يقسم الصليبيون يمين الولاء له، كما طلب جده الكسيوس الأول كومنينوس ذلك من قبله.

في تلك الأثناء، إستمر برنارد بالوعظ في بورغوندي، اللورين والفلاندز. وكما في الحملة الصليبية الأولى، أدت العظات وبشكل غير مقصود إلى مذابح ضد اليهود؛ فكان راهب ألماني سيستري متعصب يدعى رودولف يلهم المذابح في منطقة الراين، كولونيا، ماينز، ووزمز وسبير. فكان يقول بأن اليهود لم يكونوا يشاركون في الحملة إلى الأرض المقدسة ماليا. برنارد وأساقفة كولونيا وماينز كانوا معارضين وبشكل عنيف لتلك الهجمات، وهكذا سافر برنارد من الفلاندرز إلى ألمانيا ليعالج القضية، وبشكل عام أقنع برنارد مستمعي رودولف بأن يتبعوه بدلا من رودولف. ولما وجد برنارد رودولف في ماينز ، إستطاع إسكاته وإعادته إلى ديره.

إليانور من أكيتان

وفي أثناء وجوده في ألمانيا، وعظ برنارد لدى كونراد الثالث في نوفمبر من عام 1146، ولكن كونراد لم يبد إهتماما بالمشاركة شخصيا، فإستكمل برنارد طريقه للوعظ في جنوب ألمانيا وسويسرا. وفي طريق عودته في ديسمبر، توقف في شپيير، حيث ألقى خطبة نارية عاطفية، وبوجود كونراد، أخذ برنارد دور المسيح مخاطبا الإمبراطور "أيها الإنسان، ماذا كان يمكن أن أفعله لك ولم أفعله؟" فلم يستطع كونراد المقاومة وإنضم للحملة ومعه العديد من النبلاء والإقطاعيين، من ضمنهم فريدريك الثاني ، دوق شوابيا. وكما حدث في فيزيلييه سابقا، إنضمت حشود من العامة لنصرة القضية الصليبية.

بارك البابا حملة صليبية في إسبانيا أيضا، ومع ان رحى الحرب بين الإسبان والمسلمين كانت دائرة منذ أمد. فإنه غمر ألفونزو السابع من كاستيل بذات المباركة التي أعطاها للصليبيين الفرنسيين. وكما فعل البابا أوربان الثالث عام 1095، فإنه شجع الإسبان بأن يقاتلوا في أرضهم بدل الإنضمام للحملة الصليبية إلى الشرق. كما أشار على مارسيليا، بيزا، جنوه ومدن اخرى بالقتال في إسبانيا أيضا. ولكنه في مناطق اخرى شجع الإيطاليين كأماديوس الثالث من سافوا بالذهاب إلى الشرق. ولم يشأ أيوجينيوس ان يشارك كونراد في الحملة، آملا بأن يبقى ليقف إلى جانبه في تمسكه بكرسي البابوية التي كان له منافسون عليه، ولكنه لم يمنعه من الإشتراك لمّا أراد كونراد الإنضمام للحملة.

التحضيرات

في 16 فبراير 1147، إجتمع الصليبيون الفرنسيون في أيتومبيه لنقاش أي الطرق عليهم سلوكها. أما الألمان فكانوا قد عقدوا العزم على التحرك برا عبر الأراضي المجرية، وذلك للعداء بين بين كونراد وروجر الثاني ، ولكون العبور بحرا غير عملي من ناحية سياسية. عارض العديد من النبلاء الفرنسيين الطريق البري، الذي سيعبر بهم عبر الأراضي البيزنطية، والتي كانت سمعتها تعاني من أحداث الحملة الصليبية الأولى. ومع ذلك فأنه تقرر ان يتبع الفرنسيون خطى كونراد ، وإنطلقوا في 15 يونيو. شعر روجر الثاني بالإهانة، ورفض الإنضمام للحملة. وتم إنتخاب رئيس الدير سوجار والكونت وليام من نيفرز كأوصياء أثناء غياب الملك في الحملة الصليبية.

في ألمانيا، إستمر الوعظ على يد آدم من إيبراخ، وإخذ أوتو من فرايسنگ الصليب أيضا. وفي 13 مارس تم إنتخاب كونراد، إبن فريدرش ملكا في فرانكفورت تحت وصايه هنري، اسقف ماينز. خطط الألمان للإنطلاق في مايو ، وان يلتقوا الفرنسيين في القسطنطينية. وفي أثناء ذلك الإجتماع وسّع أمراء ألمان آخرون فكرة الحملة للقبائل السلافية التي تعيش في شمال شرق الإمبراطورية الرومانية المقدسة. وسمح لهم برنارد بدء حملة ضدهم. وفي 13 ابريل أكد أيوجينيوس الحملة. مقارنا إياها بالحملات في إسبانيا وفلسطين. وبذلك كان عام 1147 تاريخ ميلاد الحملة الصليبية الوندية.

في أواسط مايو غادرت أولى الفرق إنجلترا. مكونة من الفلمنكيين، الفريزيين، النورمانيين، الإنجليز، الاسكتلنديين وبعض الصليبيين الألمان. لم يقد أمير أو ملك هذا الجزء من الحملة الصليبية؛ فإنجلترا في ذلك الوقت كانت وسط الفوضى. وصل هؤلاء إلى پورتو في يونيو، وهناك أقنعهم الأسقف بالإستمرار إلى لشبونة. حيث كان الملك أفونسو من البرتغال قد توجه إلى هناك سابقا لما سمع بأن اسطولا صليبيا متوجه إلى هناك. فوافق الصليبيون على الذهاب حيث ان الحملة في إسبانيا كانت قد أُقرت من البابا، وكانوا سيقاتلون المسلمين هناك أيضا. بدأ حصار لشبونة في أول يوليو وإستمر حتى 24 اكتوبر عندما سقطت المدينة بيد الصليبيين، والذين نهبوها بالكامل قبل تسليمها لألفونزو. وإستقر بعض الصليبيين في المدينة المسيطر عليها حديثا. وتم

إنتخاب گلبرت من هاستنگز أسقفاً، ولكن معظم الاسطول أكمل طريقه إلى الشرق في فبراير من 1148. وفي ذات الوقت تقريبا، قام الإسبان تحت قيادة ألفونسو السابع من قشتالة ورامون بيرنگير الرابع، كونت برشلونة وآخرين بالسيطرة على المرية. وفي 1148 و 1149 سيطروا كذلك على تورتوسا، فراگا ولاريدا.

إنطلاق الألمان

مسير كونراد الثالث وجيشه في المجر.

عرض الملك روجر الثاني على كونراد ولويس السابع بنقلهم بحراً بسفنه. إلا أن كونراد رفض ذلك نظراً للعداوة القديمة بين الرجلين، وكذلك رفض لويس السابع نظراً لكون روجر كان عدواً لعم لويس. حسم كونراد الثالث أمره بالمسير البري ونظراً لأن مانويل كومننوس الإمبراطور البيزنطي كان قد تزوج أخته. انضم المندوب البابوي والكاردينال ثيودوين إلى القوات الألمانية، وتم الاتفاق على مقابلة القوات الفرنسية في القسطنطينية. كما انضم إليهم أوتوكار الثالث دوق شتاير مارك في فينا، وسمح ملك المجر بالمرور من أراضيه دون أن يتعرض لهم. لتبدأ رحلة الألمان في نهاية مايو من سنة 1147.

المسير إلى القسطنطينية

عبرت الجيوش الألمانية المجر دون أي مشاكل تذكر وبلغ تعداد الجيش الألماني حسب بعض المصادر إلى 20 ألف مقاتل واشارت مصادر أخرى إلى أنها خمسون ألف فارس و100 من المشاة. وقد وصلت بعثة من الإمبراطورية البيزنطية إلى كونراد الثالث في المجر لتأخذ منه المواثيق والقسم على عدم حدوث إساءات إلى الإمبراطورية من قبل الألمان ولدى وصول الجيوش إلى المناطق البيزنطية، ليدخل الألمان أراضي الإمبراطورية في البلقان وتم عبر نهر الدانوب على السفن البيزنطية. وقد قام الجيش الألماني بعمليات النهب أثناء مسيره وخاصة في مدينة تراقيا،

مما اضطر الإمبراطوار بالتدخل عسكرياً كما قام السكان المحليين بعمليات قتل للجنود المخمورين في الطرقات كانتقام لعمليات النهب. كانت هناك مناوشات مع البيزنطيين منذ مغادرة الجيش الألماني صوفيا وقيامهم بنهب القرى في الطريق. وتم إرسال القوات البيزنطية لضمان عدم حدوث مشاكل. وقد كان هناك بعض المناوشات مع بعض الألمان الغير منضبطين قرب بلوفديف وأدرنة، حيث تعارك القائد البيزنطي بروسوش مع ابن أخ كونراد والذي سيصبح فيما بعد الإمبراطور فريدريك الأول. ومما زاد الطين بلة ان بعض الجنود الألمان قتلوا في فيضان في بداية سبتمبر. وفي 10 سبتمبر، وصل الألمان إلى القسطنطينية، أقام كونراد في بادء الأمر في قصر فيلوباتيم بالقرب من أسوار القسنطينية، لكن تعرض هذا القصر للنهب أيضاً، لينتقل إلى قصر بيكريديوم، وأرتكب جنوده أعمال عنف ضد السكان المحليين. لتعود المناوشات مع البيزنطيين، وتتأزم العلاقة بين الملك الألماني والإمبراطور البيزنطي، حتى أن كونراد ألمح بأنه سيعود في العام التالي لمحاصرة القسطنطينية. وقد لعبت شقيقة كونراد دوراً في تهدئة العلاقات بين الرجلين. وكان مانويل يحث الألمان على سرعة العبور خشية التقاء الجيشين الألماني والفرنسي في القسنطينية والآثار السيئة على المدينة. وبالفعل بدأت المناوشات مع طلائع الفرنسيين الواصلين إلى القسنطينية، ليذعن الألمان إلى طلبه ويبدأوا بالتحرك. وقد طلب مانويل بقاء بعض الجنود الألمان للمساعدة في حرب مانويل مع روجر الثاني الصقلي لكن كونراد رفض ذلك.

تحرك كونراد الثالث باتجاه مدينة خلقدون وطلب من مانويل مرشدين للطريق. وبالفعل أمده مانويل بالمرشدين ونصحه بالتحرك عبر طريق الساحل باتجاه أنطاليا وبذلك يبقون ضمن أراضي الإمبراطورية. لم يعبأ كونراد بذلك وتحرك نحو قونية وهناك قام بتقسيم الحملة إلى قسمين، قسم بقياد أوتو دوق فرايسنگ يضم معه معظم الحجاج يتحرك إلى أنطاليا عبر نهر ليكوس (en). والقسم الآخر بقيادة سيخترق البلاد عبر نفس طريق الحملة الصليبية الأولى.

خرج الألمان من نيقية في 15 أكتوبر وبعد 10 أيام وصلوا إلى مدينة ضورليم بالقرب من نهر باثي وقد اصابهم الإرهاق ونقص المياه. ليفاجؤا بهجمات سريعة ومتكررة من فرسان سلاجقة الروم

بقيادة ركن الدين مسعود لتم سحق الجيش الألماني في 25 أكتوبر 1147 في معركة دوريلايوم. ليتم إبادة تسعة أعشار جنوده وليولوا الفرار بحلول المساء مع من تبقى من جنوده عائداً إلى نيقية. أما القسم الآخر من الجيش، بقيادة أوتو من فريسينج، فإنه تحرك جنوبا إلى سوريا نحو سواحل المتوسط وتم إبادته بشكل مشابه في أوائل 1148.

إنطلاق الفرنسيين

لويس السابع من فرنسا

إنطلق الصليبيون الفرنسيون من ميتز في يوليو بقيادة لويس ، ثييري من الألزاس، رينو الأول من بار، أماديوس الثالث من ساڤوا، وليام السابع من أوڤرجنيه، وليام الثالث من مونتفيريه، وغيرهم، مع جيوش من اللورين وبريتاني وبرگندي وأكيتين. وقررت قوة من پروڤانس بقيادة ألفونسو من تولوز الإنتظار حتى أغسطس والعبور بالبحر. وفي ورمز إنضم للويس صليبيون من نورماندي وإنگلترة. سارت القوات على خطى كونراد وبدون مشاكل بشكل عام، بالرغم ان لويس إختلف مع ملك هنجاريا غيزا عندما إكتشف غيزا أن لويس سمح لأحد الخارجين على غيزا بالإنضمام لقواته.

كانت العلاقة مع البيزنطين متوترة كذلك، وكان صليبيو اللورين الذين تقدموا القوات الصليبية الفرنسية تناوشوا مع ذيول القوات الألمانية المتأخرة التي إلتقوا في الطريق. ومنذ المحادثات الأولى بين لويس والملك البزنطي مانويل، فإن مانويل فض خلافه مع السلاجقة وتحالف مع السلطان مسعود، ولكن مع ذلك فإن العلاقات البيزنطية الفرنسية كانت أفضل من العلاقات البيزنطية الألمانية ، ورحب بلويس ببذخ في القسطنطينية. غضب بعض الفرنسيون لتحالف إيمانويل مع السلاجقة ودعوا للهجوم على القسطنطينية، ولكن الرسول البابوي منعهم من ذلك.

عندما إنضمت الجيوش من ساڤوا، أوڤرنيه ومونتفرات إلى لويس في القسطنطينية لسلوكهم الطريق البري عبر إيطاليا وعبورهم من برنديزي إلى دورازو، تم شحن كامل الجيش عبر البوسفور إلى آسيا الصغرى. وكان إشاعات بأن الألمان سيطروا على عاصمة سلطنة قونية قد شجعتهم على

العبور ربما حسدا أو طمعا، فجعل مانويل من الفرنسيون أن يقسمو بأن يعيدو للأمبراطور أية أراضي يسيطرون عليها، ومع ذلك لم يقدم مانويل أي دعم عسكري بيزنطي للويس. وبذا، دخل الصليبيون آسيا دون مساعدة بيزنطية، على عكس جيوش الحملة الصليبية الأولى.

إلتقى الفرنسيون بشراذم جموع مسلحة ألمانية بقيادة فريدرش من شوابيا ثم شراذم جيش كونراد في نيقية، وإنضم الألمان لقوات لويس. وتبعا خط مسير أوتو من فرايسنگ على طول ساحل البحر الأبيض المتوسط، ووصلا إلى إفسوس في ديسمبر، حيث وصلتهما أخبار ان الأتراك يخططون للهجوم عليهم. كما أرسل مانويل رسولا يشكو السلب والنهب الذي قامت بها قوات لويس على طول الطريق، ولم يكن هناك ضمان بأن البيزنطيين سيساعدونهم ضد الأتراك. وفي ذات الوقت سقط كونراد طريح الفراش لمرض ألم به وعاد إلى القسطنطينية، حيث عاده مانويل هناك شخصيا وإهتم به ، فهو مرحب به دون جيوش ولا يشكل خطرا، بل إن المفاوضات مع مانويل تجددت بخصوص الأعمال المشتركة ضد مملكة صقلية، أما لويس فلم يعر إهتماما للتحذيرات من هجوم الأتراك، فإنطلق خارجا من إفسس.

كان الأتراك ينتظرون وقت الهجوم، ولكن وفي معركة صغيرة خارج إفسس، كان النصر حليف الفرنسيين. فوصلوا لاوديكيا على الليكوس (تركيا) في أوائل يناير 1148، بعد أيام من سحق جيش أوتو من فرايسنگ في ذات المنطقة. وبإستكمالهم التقدم، إنفصلت طلائع تحت قيادة أماديوس من ساقوا عن بقية الجيش، وتم حصار قوات لويس من قبل الأتراك. لويس نفسه، طبقا لرواية أودو من دويل، تسلق شجرة فتركه الأتراك، حيث أنهم لم يعرفوه. لم يزعج الأتراك أنفسهم بإستكمال التقدم والهجوم، وإستمر الفرنسيون بالتحرك نحو أداليا، وأستمر الأتراك يناوشونهم من الخلف، كما أحرقوا الأراضي أيضا لمنع الفرنسيين من التمون لأنفسهم ولخيولهم. أراد لويس ان يستمر بالطريق البري، وتقرر ان يجمع اسطول في مدينة أتالا البحرية البيزنطية والإبحار نحو إنطاكية. وبعد ان تأخروا لمدة شهر بسبب العواصف، فإن معظم السفن التي وعدوا بها لم تصل.

فأخذ لويس والمقربون منه السفن، بينما ترك بقي الجيش ليسير إلى أنطاكية برا. كان الجيش مدمر كليا تقريبا، إما على يد الأتراك أو ضحية للمرض.

ريمون من پواتييه يرحب بلويس السابع في أنطاكية.

وصل لويس إلى أنطاكية في 19 مارس، بعد أن أخرته العواصف؛ وأمادوس من سافوي توفي في قبرص أثناء الرحلة. رحب عم إليانور ريموند صاحب إنطاكية بلويس. توقع ريموند من لويس المساعدة في هزم الأتراك ومعاونته للتوسع بإتجاه حلب، ولكن لويس رفض مفضلا إنهاء حجه إلى القدس بدلا من التركيز على البعد العسكري للحملة الصليبية. راق لإليانور المكوث، لكن عمها أراد ان تطلق لويس إذا رفض مساعدته. فغادر لويس إنطاكية بسرعة متجها إلى طرابلس. وفي تلك الاثناء، وصل أوتو من فرايسنگ وبقايا قواته إلى القدس في أوائل إبريل، وبعدها بفترة قصيرة وصل كونراد، وارسل بطريرك القدس فولك لدعوة لويس للإنضام. والاسطول الذي توقف في لشبونة لبعض الوقت وصل، كما وصل البروفانسيون الذي قاده ألفونس–جوردان (ألفونسو من تولوز). ألفونز ذاته توفي في طريقه إلى القدس، ومن الجائز أنه قد تم تسميمه على يد إبن اخته/اخيه ريموند الثاني ملك طرابلس الذي كان يخشى من طموحاته السياسية في المملكة.

مجمع عكا

في القدس تحول تركيز الحملة الصليبية بسرعة نحو دمشق، الهدف المفضل لبلدوين الثالث ملك القدس وفرسان الهيكل. وتم إقناع كونراد بأن يشارك في هذه المغامرة. ولدى وصول لويس، إجتمعت الجمعية (المحكمة) العليا لمملكة القدس اللاتينية في عكا في 24 يونيو. كان ذلك الإجتماع مشهودا أكثر من أي من إجتماعات الجمعية (المحكمة) الأخرى في تاريخ وجودها:كونراد، أوتو، هنري الثاني من النمسا، دوق شوابيا والإمبراطور المستقبلي فريدريك الأول بربروسا، ومثل وليم الثالث من مونتفري الإمبراطورية الرومانية المقدسة؛ لويس، برتراند إبن

ألفونزو، ثييري من الألزاك، وآخرون كنسيون وعلمانيون مثلوا الفرنسيين؛ ومن القدس الملك بلدوين، والملكة ميسلندا، البطريرك فولك، روبرت من كراون رئيس جمعية الفرسان الهيكليين، ريموند دي بيو دي بروفينس رئيس جمعية الأوسبتاليين. ماناسيس هيرجيس ضابط قوات مملكة القدس اللاتينية، همفري الثاني من تورون، فيليب من ميلي و باريسان من إبيلين كانوا بين الحاضرين. ومن الملاحظ أن لا أحد من انطاكية، طرابلس أو دويلة الرها السابقة كان من الحاضرين! إعتبر بعض الفرنسيين ان حجهم قد تم وأرادوا العودة إلى ديارهم؛ بعض البارونات المقيمين في مملكة القدس أشاروا انه ليس من الحكمة مهاجمة دمشق، حلفائهم ضد الاسرة الزنكية (نسبة إلى عماد الدين زنكي). أصر كونراد ولويس وبلدوين على مهاجمة دمشق، وفي يوليو تجمع جيش عند طبريا.

حصار دمشق

قرر الصليبيون مهاجمة دمشق من الغرب، حيث ستوفر لهم الغياط إمداد مستمرا بالأغذية. وصلوا في 23 يوليو بجيش من القدس في الطليعة، يتبعه لويس ثم كونراد يغطي مؤخرة الجيش. كان المسلمون متحضرون للهجوم وهاجموا الجيش المتقدم بشكل مستمر عبر الغياط. نجح الصليبيون بشق طريقهم وملاحقة المدافعين عبر نهر بردى إلى دمشق؛ وبوصولهم لأسوار المدينة فرضوا عليها فورا حصارا. تمنت دمشق الدعم من سيف الدين غازي حاكم حلب، ومن نور الدين زنكي حاكم الموصل، وقاد الوزير معين الدين النور هجوما فاشلا على معسكر الصليبيين. كان هناك تضاربات في كلا المعسكرين، فمعين الدين النور لم يكن يأمن سيف الدين أو نور الدين إذا قدما المساعدة ألا يفرضا سلطتهما على المدينة ويضماها إليهما، والصليبييون لم يتمكنوا من الإتفاق من سيمتلك المدينة في حال تم السيطرة عليها. وفي 27 يوليو قرر الصليبييون الإنتقال إلى الجانب الشرقي للمدينة الذي كانت حمايته أقل شدة من تلك في الناحية الغربية ولكن ايضا بإمدادات أقل بكثير من الطعام والماء. كان نور الدين قد وصل فعلا وأصبح من المستحيل العودة

إلى مواقعهم الأولى الأقوى. فقرر كونراد (لعله برشوة من الوزير الدمشقي) العودة ببقية الجيش إلى القدس.

النتائج

شعر كل طرف من الصليبيين بانه قد تم خيانته. ووضعت خطة جديدة للهجوم على عسقلان، وأخذ كونراد قواته إلى هناك، ولكن لم يصله أي دعم إلى هناك بسبب إنعدام الثقة الذي ولده فشل حصار دمشق. وتم التخلي عن مغامرة السيطرة على عسقلان، وعاد كونراد إلى القسطنطينية لتطوير حلفه مع مانويل، بينما بقي لويس في القدس حتى 1149. وفي أوروبا لم يكن موقف برنارد من كليرفو مشرفاً وعندما فشلت محاولاته للدعوة لحملة صليبية جديدة، حاول حل الربط بينه وبين الحملة الصلبية الثانية التي فشلت فشلا ذريعا، ولم يعمر طويلا بعدها، فمات عام 1153م.

كان لحصار دمشق الفاشل آثارا مدمرة طويلة الأمد على مملكة القدس اللاتينية: فما عادت دمشق تثق بالمملكة الصليبية، وتم تسليم المدينة لنور الدين زنكي عام 1154. أما بلدوين الثالث فإنه سيطر على عسقلان في 1153، مما أدخل مصر في جو الصراع. تمكنت القدس من التقدم بإتجاه مصر وإحتلال القاهرة لفترة وجيزة في سنوات 1160. ولكن العلاقات مع الإمبراطورية كانت متوترة في أحسن التقديرات والدعم المقدم من الغرب كان شحيحا بعد الحملة الصليبية الثانية السيئة. وفي 1171، أصبح صلاح الدين ، إبن اخ أحد ضباط نور الدين سلطانا على مصر، موحدا مصر وسوريا ومحاصرا المملكة الصليبيية بشكل تام. وفي 1187 آلت القدس إليه وتوسع شمالا ليبسط سيطرته على كل الممالك الصليبية تاركا عواصمها مع الصليبيين، ممهدا للحملة الصليبية الثالثة.

المصادر :

^ الحروب الصليبية/ أرنست باركر/ترجمة د.السيد الباز العريني/دار النهضة العربية بيروت / صفحة 74

^ تاريخ الحملات الصليبية/الجزء الثاني مملكة بيت المقدس/ستيفن رانسيمان/ترجمة نور الدين خليل/صفحة 300

^ تاريخ الحروب الصليبية/د.محمود سعيد عمران/دار المعرفة الجامعية/2000/ ^ الصليبيون في الشرق/ميخائيل زابوروف/ دار التقدم موسكو

^ تاريخ الحملات الصليبية ج2 مملكة بيت المقدس / ستيفن رانسيمان /ترجمة نور الدين خليل ^

^ تاريخ الحملات الصليبية ج2 مملكة بيت المقدس/ستيفن رنسيمان^ نظرة عربية على غزوات الإفرنج من بداية الحروب الصيبية حتى وفاة نور الدين/تيسير بن موسى/الدار العربية للكتاب/

الحملة الصليبية الثالثة (1189–1192)

وتعرف أيضا باسم حملة الملوك، هي محاولة من قبل القادة الأوروبيين لاستعادة الأراضي المقدسة من صلاح الدين الأيوبي. كانت الحملة ناجحة إلى حد كبير، واحتلت فيها مدنا هامة مثل عكا ويافا، مسببة في ضياع مكاسب فتوحات صلاح الدين الأيوبي، لكن فشلت القوات الصليبية في احتلال بيت المقدس، المسبب الرئيسي للحملات الصليبية.

بعد فشل الحملة الصليبية الثانية، حكم الزنكيون سوريا ووحدوها، ثم دخلوا في صراع مع حكام مصر الفاطميين. توحدت القوات المصرية والسورية في نهاية المطاف تحت قيادة صلاح الدين الأيوبي، الذي عمل على إسقاط الدول المسيحية واستعادة القدس في 1187. زادت الحماسة الدينية لدى هنري الثاني ملك إنجلترا وفيليب الثاني ملك فرنسا (المعروفة باسم فيليب أغسطس)، وأدى ذلك إلى القيام بمحاولة لإنهاء الصراعات القائمة بينهم لقيادة حملة صليبية جديدة. توفي هنري في 1189، ومع ذلك، أصبحت القوات الإنجليزية تحت قيادة خليفته الملك ريتشارد الأول (المعروفة باسم ريتشارد قلب الأسد). استجاب الإمبراطور الروماني المقدس فريدريك بربروسا أيضا للدعوة إلى الحملة، فعبر جيش ألماني ضخم الأناضول، لكنه غرق في نهر في آسيا الصغرى في 10 يونيو 1190 قبل الوصول إلى الأراضي المقدسة. سببت وفاته حزنا كبيرا لدى الصليبيين الألمان، وعادت أغلب قواته إلى الإمبراطورية.

بعد استرجاع الصليبيين لمدينة عكا من المسلمين، غادر فيليب رفقة خليفة فريدريك، ليوبولد الخامس دوق النمسا (المعروف باسم ليوبولد الفاضل)، الأراضي المقدسة في أغسطس 1191. في 2 سبتمبر 1192، وضع ريتشارد وصلاح الدين اللمسات الأخيرة على معاهدة تمنح المسلمين السيطرة على القدس مع السماح للحجاج العزل والتجار المسيحيين بزيارة المدينة. غادر ريتشارد الأراضي المقدسة في 2 أكتوبر. سمحت نجاحات الحملة الصليبية الثالثة للصليبيين بالحفاظ على نفوذ كبير في قبرص والساحل السوري. ومع ذلك، أدى عدم استعادة القدس إلى شن الحملة الصليبية الرابعة.

بعد فشل الحملة الصليبية الثانية، سيطر نور الدين الزنكي على دمشق ووحد سوريا. من أجل توسيع سلطته، فرض نور الدين حكمه على الدولة الفاطمية في مصر. في 1163، بعث نور الدين القائد العسكري أسد الدين شيركوه، على رأس جيش إلى النيل. كان مرافقه شابا هو ابن أخيه، صلاح الدين. بعد أن أصبحت قوات شيركوه قريبة من القاهرة، طلب الوزير المصري شاور المساعدة من ملك بيت المقدس أمالريك الأول. وفي رد على ذلك، أرسل أمالريك جيشا إلى مصر لمهاجمة قوات شيركوه في بلبيس في 1164.

في محاولة لإبعاد الخطر الصليبي عن مصر، هاجم نور الدين أنطاكية، مما أدى إلى مجزرة ضد الجنود المسيحيين وأسر عدد من الزعماء الصليبيين، بما في ذلك بوهيموند الثالث، أمير أنطاكية. سحب كل من أمالريك وشيركوه قواته خارج مصر فيما بعد.

في 1167، أرسل نور الدين أسد الدين شيركوه مرة أخرى لهزم الفاطميين في مصر. قام شاور مرة أخرى بطلب المساعدة من أمالريك للدفاع عن بلاده. لاحقت القوات المصرية–المسيحية المشتركة شيركوه حتى تراجع إلى الإسكندرية. خرق أمالريك تحالفه مع شاور عندما تحولت قواته في مصر إلى محاصرة مدينة بلبيس. بالرغم من أنه عدو سابق لشاور، حاول نور الدين إنقاذه من أمالريك. تراجع هذا الأخير عن حصار القاهرة لعدم تفوق جنوده على القوات المشتركة لنور الدين وشاور. أعطى هذا التحالف الجديد السلطة لنور الدين لحكم كل سوريا ومصر تقريبا.

أعدم شاور بسبب تحالفاته مع القوات المسيحية وخلفه أسد الدين شيركوه في منصب وزير مصر. في 1169، توفي هذا الأخير بشكل غير متوقع بعد أسابيع فقط من حصوله على منصب الوزير. خلف شيركوه ابن أخيه، صلاح الدين يوسف، المعروف باسم صلاح الدين الأيوبي. توفي نور الدين في 1174، وترك إمبراطورا جديدا عمره 11 عاما هو، الصالح إسماعيل. تقرر أن الرجل الوحيد الذي سيقود الجهاد ضد الفرنجة هو صلاح الدين، الذي أصبح سلطان مصر وسوريا وأسس الدولة الأيوبية.

توفي أمالريك أيضا في 1174، وخلفه في عرش بيت المقدس ابنه البالغ من العمر 13 عاما، بلدوين الرابع. على الرغم من معاناة بلدوين من الجذام، لكنه كان قائد عسكريا كبيرا، وهزم صلاح الدين في معركة مونتجيسارد في 1177، بدعم من أرناط، الذي كان قد هرب من السجن في 1176. زور أرناط في وقت لاحق اتفاقا مع صلاح الدين للسماح بالتجارة الحرة بين المناطق المسلمة والمسيحية. هاجم أرناط أيضا القوافل التجارية في جميع أنحاء المنطقة ووسع القرصنة في البحر الأحمر عن طريق إرسال فرق للإغارة على السفن، والاعتداء على مكة المكرمة نفسها. أغضبت هذه الأفعال العالم الإسلامي، مما أعطى لأرناط سمعة سيئة في منطقة الشام.

توفي بلدوين الرابع في 1185، وترك عرش المملكة لابن أخته بلدوين الخامس، الذي كان قد توج كملك ليرافق خاله في 1183. عاد ريموند الثالث الطرابلسي مرة أخرى إلى الصراع حول عرش بيت المقدس.في السنة التالية، توفي بلدوين الخامس قبل عيد ميلاده التاسع، وتوجت أمه الأميرة سيبيلا، شقيقة بلدوين الخامس، نفسها ملكة وزوجها، غي اللوزينياني، ملكا. هاجم أرناط مرة أخرى قوافل التجار الأغنياء وحبس المسافرين في السجون. طالب صلاح الدين بالإفراج عن السجناء والبضائع المسروقة. أمر الملك غي الذي توج حديثا أرناط بالاستجابة لمطالب صلاح الدين، ولكنه رفض أن يتبع أوامر الملك.

حصار مملكة بيت المقدس

أعطى رفض أرناط إيقاف أعماله الفرصة لصلاح الدين بالهجوم على مملكة بيت المقدس، وفي عام 1187، حاصر مدينة طبريا. نصح ريموند الصليبيين بالصبر، ولكن الملك غي، بناء على مشورة أرناط، سار بجيشه إلى حطين خارج طبريا. دمر الجيش الفرنجي، بسبب العطش وضعف الروح المعنوية، في المعركة التي حصلت بهذه المنطقة، ولم تعد المدينة مرة أخرى إلى السيطرة المسيحية حتى 1229.

معركة حطين بين المسلمين والمسيحيين.

إعدام أرناط بعد معركة حطين.

نقل الملك غي وأرناط إلى خيمة صلاح الدين، حيث أعطاهم هذا الأخير الماء بسبب عطشهم الكبير. شرب غي من كأس به ماء ومن ثم مرره إلى أرناط. بعد أن أخد أرناط الكأس من الملك غي بدلا من صلاح الدين، يعني أن هذا الأخير لن يضطر إلى تقديم الحماية إلى شخص غدره (كان يقول في نفسه أنه إذا أخد الماء شخصيا منه، سوف تكون حياته آمنة). عندما قبل أرناط الشرب من أيدي الملك غي، قال مترجم لصلاح الدين، "يقول الملك: أنه هو الذي أحضره

ليشرب". بعد ذلك، قطع صلاح الدين رأس أرناط لخيانته له. أكرم صلاح الدين الملك غي حسب التقاليد المتعارف عليها وتم إرساله إلى دمشق في نهاية المطاف، وهو واحد من عدد قليل من الأسرى الصليبيين الذين لم يعدموا.

بحلول نهاية هذا العام، سيطر صلاح الدين على عكا والقدس. يقال البابا أوربان الثالث أنه انهار ومات عند سماع هذه الأخبار، ولكن في وقت وفاته، لم يكن قد وصل إليه خبر سقوط القدس، على الرغم من أن علم بهزيمة الصليبيين معركة حطين وسقوط عكا.

الاستعدادات

غريغوري الثامن، بابا الكنيسة الكاثوليكية الذي دعا إلى شن الحملة الصليبية الثالثة، بعد سقوط بيت المقدس.

أعلن البابا الجديد، غريغوري الثامن، أن استرجاع المسلمين للقدس كان عقابا من الله للمسيحيين بسبب خطاياهم في جميع أنحاء أوروبا. ثم صرخ داعيا إلى حملة صليبية جديدة لاسترجاع الأراضي المقدسة. أنهى كل من هنري الثاني ملك إنجلترا وفيليب الثاني ملك فرنسا حربه مع الآخر، وفرض كل واحد منهما "عشور صلاح الدين" على مواطنيه لتمويل الحملة. في بريطانيا، قام بلدوين إكستر، كبير أساقفة كانتربري، بجولة في ويلز، وأقنع 3.000 رجل بالانضمام إليه وأعطاهم الأسلحة والصليب، ثم انضموا إلى رحلة جيرالد الويلزي.

حملة فريدريك بربروسا

استجاب الإمبراطور الروماني المقدس فريدريك الأول بربروسا للدعوة إلى الحملة على الفور. أخذ فريدريك الصليب في كاتدرائية ماينز في 27 مارس 1188، وكون جيشا ليذهب به إلى الأراضي المقدسة في مايو 1189 يضم حوالي 100.000 رجل، بما في ذلك 20.000 فارس. ذهب

جيش يتكون من 2.000 رجل بقيادة الأمير غيزا المجري، الأخ الأصغر للملك بيلا الثالث المجري، مع بارباروسا إلى الأراضي المقدسة.

معركة قونية في 1190 بين الجيش الألماني وسلاجقة الروم.

قدم الإمبراطور البيزنطي إسحاق الثاني أنجلوس مبادرة تحالف سري مع صلاح الدين لعرقلة تقدم فريدريك الذي أحرزه في مقابل سلامة إمبراطوريته. وفي الوقت نفسه، وعدت سلطنة الروم فريدريك بالعبور من خلال الأناضول، ولكن فقد صبره بعد ذلك وفي 18 مايو 1190، حاصر الجيش الألماني قونية، عاصمة السلطنة. عندما كان يعبر نهر السالف في 10 يونيو 1190، ألقى حصان فريدريك هذا الأخير، فوق الصخور، ثم غرق في النهر. بعد هذا، عاد أغلب جنوده إلى ألمانيا تحسبا للانتخابات الإمبراطورية القادمة. قاد نجل الإمبراطور فريدريك الشوابي، 5.000 رجل ظلوا هناك إلى أنطاكية. أزيل لحم الإمبراطور وبقيت عظامه، وتم وضعها في كنيسة سانت بيتر؛ حيث تم وضعها في حقيبة من أجل استمرار الحملة الصليبية. ومع ذلك، في أنطاكية، كان الجيش الألماني مريضا بالحمى. طلب الشاب فريدريك المساعدة من صهر كونراد المونفيراتي لقيادة جنوده إلى عكا، عبر طريق صور، حيث دفنت عظام والده.

انطلاق الملكين ريتشارد وفيليب

توفي هنري الثاني ملك إنجلترا في 6 يوليو 1189 بعد هجوم مفاجئ عليه من قبل ابنه ريتشارد قلب الأسد والملك فيليب الثاني. صعد ريتشارد إلى عرش البلاد بعد حفل تتويج وبدأ فورا بمحاولة جلب الأموال من أجل الحملة الصليبية. في هذه الأثناء، غادر بعض رعاياه البلاد عن طريق البحر. غزا بعض هؤلاء الرعايا جنبا إلى جنب مع أشخاص من الإمبراطورية الرومانية المقدسة وفرنسا مدينة أندلسية في إيبيريا خلال صيف عام 1189، قبل مواصلة التقدم الأراضي المقدسة. في أبريل 1190، رحل الملك ريتشارد في أسطول من دارتموث تحت قيادة ريتشارد الكامفيلي

وروبرت السابلي في طريقهم للقاء الملك فيليب في مارسيليا. ساعدت أجزاء من هذا الأسطول سانشو الأول ملك البرتغال على هزيمة الدولة الموحدية في شنترين وتوريس نوفاس، في حين نهبت مجموعة أخرى لشبونة المسيحية، إلا أنه تم توجيهها من قبل العاهل البرتغالي. اجتمع ريتشارد وفيليب الثاني في فرنسا في فيزيلاي ثم ذهبا معا في 4 يوليو 1190 إلى ليون حيث افترقا ثم اتفقا على أن يلتقيا معا مرة أخرى في صقلية؛ أرسل ريتشارد مع حاشيته، 800 رجل، ذهبوا إلى مارسيليا وذهب فيليب في المقابل إلى جنوة. وصل ريتشارد إلى مارسيليا ووجد أن أسطوله لم يصل بعد؛ لكنه سرعان ما تعب من انتظاره وتركيب السفن، ثم ترك صقلية في 7 أغسطس، حيث زار العديد من الأماكن في إيطاليا في طريقه ووصل إلى ميسينا في 23 سبتمبر. وفي الوقت نفسه، وصل الأسطول الإنجليزي في نهاية المطاف إلى مارسيليا في 22 أغسطس، ووجد أن ريتشارد قد ذهب، ثم أبحر مباشرة إلى ميسينا، ووصل قبله إليها في 14 سبتمبر. استأجر فيليب أسطول جنوة لنقل جيشه، الذي تألف من 650 فارس، 1.300 حصان، و 1.300 إقطاعي إلى الأراضي المقدسة عن طريق صقلية.

وصول فيليب الثاني إلى فلسطين.

توفي ويليام الثاني ملك صقلية قبل الحملة بسنة، وخلفه تانكريد، الذين سجن جوان، زوجة وليام وشقيقة الملك ريتشارد. احتل هذا الأخير مدينة ميسينا في 4 أكتوبر 1190 وتم الإفراج عن جوان. اختلف فيليب وريتشارد على مسألة زواج هذا الأخير، حيث قرر الزواج من بيرنغاريا النافارية، وبذلك يكون قد أنهى خطوبته من أليس، شقيقة فيليب والتي استمرت طويلا. ترك فيليب صقلية مباشرة متوجها إلى الشرق الأوسط في 30 مارس 1191 ووصل إلى صور في منتصف مايو؛ انضم إلى حصار عكا في 20 مايو. لم يترك ريتشارد صقلية حتى 10 أبريل.

بعد وقت قصير من الانطلاق من صقلية، قام الملك ريتشارد بتسليح 180 سفينة و 39 قادس لكنهم تضرروا بسبب عاصفة عنيفة. تحطمت العديد من السفن وضاعت كميات كبيرة من الأموال التي جمعت للحملة الصليبية. اكتشف ريتشارد بعد ذلك أن إسحاق دوقاس كومنينوس القبرصي

استولى على هذه الأموال. دخل ريتشارد ليماسول في 6 مايو والتقى بإسحاق، الذي وافق على إعادة أموال ريتشارد وإرسال 500 من جنوده إلى الأراضي المقدسة. أنشأ ريتشارد معسكرا في ليماسول، وزار غي اللوزينياني، ملك بيت المقدس، وتزوج بيرنغاريا التي توجت ملكة. عندما زار قلعة فاماغوستا، أمر إسحاق ريتشارد بترك الجزيرة. ألح إسحاق كثيرا على ريتشارد بترك الجزيرة في غضون أيام، وغادرها أخيرا في 5 يونيو 1191.

حصار عكا

الممالك الصليبية عام 1190 ومعارك الحملة الصليبية الثالثة.

أخرج صلاح الدين الملك غي اللوزينياني من السجن في 1189. حاول غي قيادة القوات المسيحية في صور، ولكن زادت قوة كونراد المونفيراتي بعد دفاعه عن المدينة وصده هجمات المسلمين. حول غي انتباهه إلى ميناء عكا الثري. جمع دي لوزينيان جيشا لمحاصرة المدينة وحصل على المعونة من الجيش الفرنسي بعد وصول فيليب. لم تكن الجيوش الصليبية المشتركة كافية لمواجهة صلاح الدين، ومع ذلك، ظلت هذه القوات تحاصر المدينة. في صيف 1190، تفشى مرض غير معروف بمخيم، كان فيه الملكة سيبيلا وبناتها وقد ماتوا بسببه. سعى غي، على الرغم من أنه أصبح ملكا عن طريق الزواج فقط، إلى الاحتفاظ بالعرش، رغم أن الوريث الشرعي كان هو إيزابيلا أخت سيبيلا. بعد تعجيل ترتيبات الطلاق من همفري الرابع التوروني، تزوجت إيزابيلا من كونراد المونفيراتي الذي أصبح ملكا بعد تزوجه منها.

خلال فصل الشتاء في 1190–91، تفشى مرض الحمى كثيرا، والذي مات بسببه فريدريك الشوابي، البطريرك هرقل المقدسي، وتيوبالد الخامس البلوي. عندما عندما حل فصل الربيع في 1191، وصل ليوبولد الخامس دوق النمسا بما تبقى من القوات الإمبراطورية الرومانية المقدسة. وصل فيليب الثاني أغسطس مع قواته من صقلية في مايو. وصل جيش صليبي آخر تحت قيادة ليو الأول الأرمني أيضا.

وصل ريتشارد إلى عكا في 8 يونيو 1191 وبدأ فورا في قيادة قواته في حصار المدينة، التي استرجعها في 12 يوليو. تشاجر ريتشارد، فيليب، وليوبولد حول كيفية توزيع غنائم الحصار والنصر. لم يطبق ريتشارد القواعد الألمانية في هذا الأمر، وتجاهل مطالب ليوبولد بتطبيقها. أثناء الصراع حول عرش بيت المقدس، دعم ريتشارد غي اللوزينياني، في حين دعم فيليب وليوبولد كونراد المونفيراتي، الذي كان على علاقة بهما على حد سواء. وتقرر أن غي اللوزينياني سيواصل حكمه للمملكة وسيخلفه كونراد المونفيراتي عند وفاته. أصبح فيليب في ذلك الوقت في حالة صحية سيئة وقد أصابه الإحباط، مما أدى إلى سحب كل من فيليب وليوبولد لجيوشهما من الأراضي المقدسة في أغسطس، وغادروها في نفس الشهر. ترك فيليب 10.000 جندي صليبي فرنسي هناك و 5.000 قطعة فضية لتدفع لهم.

فيليب الثاني أغسطس في عكا بعد سقوطها.

مذبحة عكا على يد ريتشارد قلب الأسد.

في 18 يونيو، بعد فترة وجيزة من وصول ريتشارد إلى يافا، بعث هذا الأخير رسولا إلى صلاح الدين يحمل رسالة يطلب منه فيها أن يجتمعا وجها لوجه. رفض صلاح الدين، قائلا أنهما لن يجتمعا من بعضه البعض إلا بعد أن يوافق ريتشارد على معاهدة سلام، "كبادرة حسن نية لإنهاء هذه الحملة الصليبية". لم يلتق الملكان قط، على الرغم من أنهما تبادلا الهدايا وقام ريتشارد بعدد من الاجتماعات مع العادل، شقيق صلاح الدين. حاول صلاح الدين التفاوض مع ريتشارد للإفراج عن حامية الجند المسلمة الأسيرة، والتي تضم النساء والأطفال. ومع ذلك، في 20 أغسطس، فكر ريتشارد بأن صلاح الدين قد تأخر كثيرا، فقام بقطع رأس 2.700 سجين مسلم، وقد حاول الجيش الأيوبي إنقاذهم دون جدوى. رد صلاح الدين بقتل كل السجناء المسيحيين الذين كان قد أسرهم.

معركة أرسوف

مخطط لمعركة أرسوف.

بعد احتلال عكا، قرر ريتشارد الذهاب إلى مدينة يافا. كانت السيطرة على يافا ضرورية قبل محاولة الهجوم على بيت المقدس. ومع ذلك، في 7 سبتمبر 1191، هاجم صلاح الدين جيش ريتشارد في أرسوف، 30 ميل (50 كم) شمال يافا. حاول صلاح الدين مضايقة جيش ريتشارد وكسر شوكته. حافظ جيش ريتشارد على موقفه الدفاعي، ومع ذلك، قطع الفرسان خطوط إمداد الجناح الأيمن لقوات صلاح الدين. أمر ريتشارد بشن هجوم مرتد عام، مكنه من الفوز بالمعركة. كانت أرسوف نصرا هاما. لم يتم تدمير الجيش الإسلامي، على الرغم من الخسائر الكبيرة، لكنه هزم في النهاية؛ كان يعتبر هذا عارا على المسلمين، ورافعا لمعنويات الصليبيين. أنقصت أرسوف سمعة صلاح الدين الأيوبي باعتباره قائدا لا يقهر وأثبتت شجاعة وحنكة ريتشارد العسكرية. كان هذا الأخير قادرا على تنفيذ استراتيجية دفاعية لإبقاء الأراضي التي استرجعها في يده، واحتلال يافا، هي الخطوة الأخيرة للتحرك نحو استرجاع بيت المقدس. سبب استرجاع الساحل من أيدي صلاح الدين خطرا كبيرا على القدس.

بعد فوزه في أرسوف، احتل ريتشارد يافا وأسس معسكره الجديد هناك. قام هذا الأخير ببدء المفاوضات مع صلاح الدين الذي أرسل شقيقه، العادل (المعروف باسم "صفاء الدين" عند الفرنجة)، للقاء ريتشارد. فشلت المفاوضات، والتي اشتملت على محاولة أخت ريتشارد، جوان، وبسبب هذا، سار ريتشارد إلى عسقلان، التي كان قد هدمها صلاح الدين في الآونة الأخيرة.

منمنمة تعود للقرن الثالث عشر، تظهر مبارزة خيالية بين ريتشارد قلب الأسد وصلاح الدين الأيوبي.

في نوفمبر 1191، تقدم الجيش الصليبي نحو القدس. في 12 ديسمبر، اضطر صلاح الدين بسبب ضغط أمراءه إلى حل الجزء الاكبر من جيشه. نتيجة لهذا، أكمل جيش ريتشارد تقدمه، وقد احتفل هذا الأخير بالكريسماس في اللطرون. سار الجيش بعد ذلك إلى بيت النوبة، التي تبعد 12 كيلومترا فقط من القدس. كانت معنويات المسلمين في القدس منخفضة جدا لأن وصول الصليبيين ربما قد يتسبب في سقوط المدينة بسرعة. أدى سوء الأحوال الجوية، الطقس البارد جدا وهطول الأمطار الغزيرة والعواصف، جنبا إلى جنب مع الخوف ما إذا كان الجيش الصليبي سيحاصر القدس إلى العدول عن فكرة تراجع الصليبيين إلى الساحل.

دعا ريتشارد كونراد للانضمام إليه في حملته، لكنه رفض، بسبب تحالف ريتشارد مع الملك غي. تفاوض كونراد أيضا مع صلاح الدين ليمنع أي محاولة لريتشارد لانتزاع صور منه وإعطاءها لغي اللوزينياني. ومع ذلك، في أبريل، اضطر ريتشارد إلى قبول كونراد ملكا للقدس بعد الانتخابات التي عقدها نبلاء المملكة. لم يوافق غي على نتائج الانتخابات على الإطلاق؛ باع ريتشارد قبرص لهذا الأخير كتعويض. قبل أن يتوج، كان كونراد قد طعن حتى الموت من قبل حشاشين اثنين في شوارع صور. بعد ثمانية أيام، تزوج ابن أخ ريتشارد، هنري الثاني الشامباني، الملكة إيزابيلا التي كانت حامل بطفل كونراد. كان يشتبه كثيرا أن قتلة الملك قد أخذوا التعليمات من ريتشارد.

خلال أشهر الشتاء، احتل ودمر جيش ريتشارد مدينة عسقلان، والتي كان قد هدم صلاح الدين تحصيناتها في وقت سابق. شهد ربيع عام 1192 استمرار المفاوضات والمناوشات بين القوات المتعارضة. في 22 مايو، احتل مدينة داروم الاستراتيجية الهامة المحصنة الواقعة على حدود مصر، بعد خمسة أيام من القتال العنيف. تقدم جيش صليبي آخر مسبقا نحو القدس، وفي يونيو، أصبح قريبا جدا من المدينة، لكنه تراجع مرة أخرى، وهذه المرة بسبب الصراع بين قادته. على وجه الخصوص، أراد ريتشارد وغالبية الجيش مهاجمة صلاح الدين في عقر داره عن طريق غزو مصر، لكي يتخلى عن بيت المقدس. كان قائد الوحدات الفرنسية هو دوق بورغونيا، ومع ذلك، كان هذا الأخير مصرا على أن يقود الهجوم المباشر على القدس. أضعف تقسيم الدوق للجيش الصليبي إلى قسمين من قوته، ولم ينجح في تحقيق أهدافه بسبب هذا. أراد ريتشارد أن يصاحب

جيشا صغيرا معه للهجوم على القدس، لكن رفضت قيادة الجيش الصليبي. اضطر جيش المسيحيين إلى التراجع نحو الساحل بسبب عدم وجود قيادة موحدة له.

في يوليو 1192، هاجم جيش صلاح الدين الذي يضم الآلاف من الرجال فجأة يافا واحتلها، ولكن فقد صلاح الدين السيطرة عليهم بسبب غضبهم من مجزرة عكا. ويعتقد أن صلاح الدين أمر الصليبيين بأن يبقوا في قلعة المدينة حتى يقوم باستعادة السيطرة على جيشه مرة أخرى.

كان ريتشارد يريد العودة إلى إنجلترا عندما سمع الأخبار بأن صلاح الدين وجيشه احتلا يافا. ذهب ريتشارد رفقة قوة صغيرة تضم 2.000 رجل إلى يافا عن طريق البحر في هجوم مفاجئ. دخلت قوات ريتشارد يافا، وتم طرد الأيوبيين من المدينة بسبب الهجوم البحري الكبير الذي شنته السفن الإنجليزية عليهم. أطلق ريتشارد سراح الحامية الصليبية التي كانت في قلعة المدينة، وساعدت هذه القوات في تعزيز قوة جيشه. كان جيش صلاح الدين متفوقا عدديا، ومع ذلك، لم يقم إلا بالدفاع فقط عن المناطق التي كانت لا تزال في حوزته، ولم يحاول منذ ذلك الحين التقدم أكثر. أراد صلاح الدين القيام بهجوم مفاجئ سري في الفجر، ولكن تم كشفه؛ شرعت قواته بالهجوم إلا أن الجنود لم يأخذوا هذا الأخير على محمل الجد وعانوا من خسائر فادحة بسبب قذائف الجنود الصليبيين. انتهت معركة استعادة يافا بهزيمة صلاح الدين، الذي اضطر إلى التراجع. عززت هذه المعركة موقف الدول الصليبية الساحلية إلى حد كبير.

في 2 سبتمبر 1192، بعد هزيمته في يافا، اضطر صلاح الدين إلى إبرام معاهدة مع ريتشارد، تبقي بيت المقدس تحت سيطرة المسلمين، في حين تسمح للحجاج والتجار المسيحيين العزل بزيارة المدينة. في حين أصبحت عسقلان قضية خلافية بين المسلمين والمسيحيين لأنها هددت الوحدة بين مصر وسوريا. في نهاية المطاف، تم الاتفاق على هدم دفاعات عسقلان، وأن تبقى تحت سيطرة صلاح الدين. غادر ريتشارد الأراضي المقدسة في 9 أكتوبر 1192.

لم يكن كلا الطرفين راضين تماما عن نتائج الحملة. على الرغم من أن انتصارات ريتشارد حرمت المسلمين من الأراضي الساحلية المهمة وأعادت إنشاء الدول الفرنجية في فلسطين، إلا أن العديد

من المسيحيين في الغرب اللاتيني شعروا بخيبة أمل لعدم استعادة بيت المقدس. وبالمثل، شعر العديد من الناس في العالم الإسلامي بالقلق من فشل صلاح الدين في كبح جماح المسيحيين في سوريا وفلسطين. ازدهرت التجارة في جميع أنحاء الشرق الأوسط وفي المدن الواقعة على طول ساحل البحر الأبيض المتوسط.

روى المؤرخ والباحث في سيرة صلاح الدين الأيوبي، بهاء الدين بن شداد، محنة هذا الأخير بسبب نجاحات الصليبيين: أخشى أن يحل السلام، وأنا لا أعرف ماذا سيحصل لي. أصبح عدونا قويا، عندما استعاد العديد من الأراضي. وسوف يتقدم لاسترداد ما تبقى من أراضينا وسوف ترى كل واحد من الصليبيين يصعد إلى الأعلى (يقصد القلاع)، ويقول، "أنا يجب أن يبقى" وسيخرب العالم الإسلامي. هذه كلماته وجاء ليقولهم لي.

اعتقل ريتشارد وسجن في ديسمبر 1192 من قبل ليوبولد الخامس دوق النمسا، الذي اتهم ريتشارد بأنه قتل ابن عمه كونراد المونفيراتي. استاء ليوبولد أيضا من قيام ريتشارد بهدم دفاعات عكا. نقل ريتشارد في وقت لاحق إلى سجن هنري السادس، الإمبراطور الروماني المقدس، الذي أعطيت له فدية مائة وخمسون ألف للإفراج عن ريتشارد. عاد ريتشارد إلى إنجلترا في 1194 و مات في 1199 عن سن 41 سنة.

في 1193، مات صلاح الدين بالحمى الصفراء. تنازع ورثته حول من الأحق بالخلافة، متسببين في ضياع جزئي لفتوحات صلاح الدين.

قتل هنري الشامباني عندما أوقعه شخص غير معروف قصدا في 1197. تزوجت الملكة إيزابيلا للمرة الرابعة، من أمالريك اللوزينياني، شقيق غي اللوزينياني، الذي أصبح ملكا لقبرص. بعد وفاتهم في 1205، نجحت ابنته الكبرى ماريا المونفيراتية (ولدت بعد مقتل أبيها) في الصعود على عرش بيت المقدس.

أدى قرار ريتشارد بعدم الهجوم على القدس إلى الدعوة إلى الحملة الصليبية الرابعة، ست سنوات بعد انتهاء الحملة الصليبية الثالثة في 1192. ومع ذلك، أبقت انتصارات ريتشارد سيادة الصليبيين على عكا. لخص المؤرخ توماس مادن إنجازات الحملة الصليبية الثالثة: ...لم يتوقع أي أحد النجاح الذي حققته الحملة الصليبية الثالثة. معظم انتصارات صلاح الدين في أعقاب معركة حطين تم مسحها. تعافت الممالك الصليبية من الانقسامات، واستعادت المدن الساحلية، وأبرمت معاهدة سلام مع أكبر عدو لها. على الرغم من أنهم فشلوا في استعادة القدس، وضع النصارى بمساعدة ريتشارد أقدامهم في الشام مرة أخرى.

تحركت جيوش الغرب يقوده ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا وآخرون وعيونهم صوب الشرق فيما عرف بالحملة الصليبية الثالثة.

من هم قادة الحملة الصليبية الثالثة وما هدفها؟

كان قادة الحملة هم فريدريك الأول بربروسا إمبراطور ألمانيا، وفيليب الثانى أغسطس ملك فرنسا، وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا، وهم ثلاثة من أكبر ملوك أوروبا وهدفت الحملة إلى إعادة السيطرة على الأرض المقدسة بعد أن عاد الأيوبيون بقيادة صلاح الدين الأيوبى للسيطرة عليها عام 1187.

متى انطلقت الحملة الصليبية الثالثة؟

قامت الحملة الصليبية الثالثة من سنة 1189 م إلى سنة 1192 م، واشترك فيها بوجه الخصوص الإقطاعيون الكبار والفرسان من بلدان أوروبا الغربية، وكانت المصالح التجارية فى الشرق للدول الإقطاعية قد اكتسبت مكاناً مهماً فى سياساتها.

وبعد حوالى ستة أشهر فى صقلية، أبحر فيليب الثانى من مسينا فى 30 مارس 1191 م، ولحق به حليفه الذى لم يعد رفيق طريقه بعد 10 أيام، فمضى الفرنسيون إلى صور، أما ريتشارد فاحتل

فى طريقه جزيرة قبرص، الأمر الذى أصبح ذا أهمية كبرى فيما بعد، فإن ممالك الصليبيين لم تكن لتصمد لمئة سنة أخرى إلا بفضل الدعم العسكرى من قبرص.

قام الصليبيون بحصار عكا، فكان الفرنسيون وفصائل الأسياد المحليين والألمان والدنماركيون والفلمنكيون الإيطاليون، واستمر حصار هذه القلعة المنيعة أشهراً، ساهم فى طول هذا الحصار الخلاف الداخلى فى صفوف الصليبيين، ووصل ريتشارد إلى عكا فى 7 يونيو 1191، وفى 11 يوليو 1191 م، بدأ هجوم عام، كان ريتشارد من اقترحه، وفى اليوم التالى استسلمت المدينة التى أنهكها الحصار المديد، وجرت مذبحة بأمر ريتشارد وتحت قيادته فى عكا، قتل فيها رجاله أكثر من ألفى مسلم أخذوهم من صلاح الدين بعد فتح عكا كرهائن.

ما نتائج الحملة الصليبية الثالثة؟

كان من نتائج الحملة صلح الرملة، وفيه أن تظل عسقلان خراباً وتبقى أملاك صلاح الدين فى يده و أملاك الفرنج فى أيديهم وهى يافا وقيسارية وأرسوف وحيفا وعكا أعمالها جميعاً أما اللد والرملة فتبقى " مناصفة " مشتركة بين الفريقين، أن تكون الهدنة 3 سنين و 8 شهور، ألا يتعرض الصليبيون لبيت المقدس، أن يسمح صلاح الدين لزوار الفرنج بدخول القدس.

الحملة الصليبية الرابعة

توفِّي السلطان صلاح الدين الأيوبي في (27 من صفر 589هـ/ 4 من مارس 1193م) بقلعة دمشق بعد أن أُصيب بحمَّى؛ فحزن المسلمون كبارًا وصغارًا، وتنفّس الصليبيون الصعداء، وعوَّلوا على قلة خبرة أبنائه من بعده. وقد حدث ما كانوا يؤمِّلونه؛ إذ انشغل ورثة صلاح الدين بالصراعات الداخلية على الولايات والمدن، وقضوا تسع سنوات في مؤامرات داخلية، حتى وصل الأمر إلى انفصال الشام عن مصر مرةً أخرى في ضربة قاصمة للوَحْدة الإسلامية.

لذا فإنه في السنة التي تولى فيها السلطان العادل الأيوبي شقيق صلاح الدين منصب السلطنة الأيوبية في القاهرة، أي سنة 596هـ/ 1200م، كانت فكرة الاستيلاء على بيت المقدس وضرب مصر لا تزال تشغل بال الأوربيين.

وحين رأى الصليبيون أن السلطان العادل يفرض نوعًا من الوحدة على أبناء البيت الأيوبي، خافوا أن يعودوا إلى الموقف المرعب الذي عانوا منه كثيرًا أيام صلاح الدين الأيوبي؛ لذا بدؤوا يفكرون في حملة صليبيةٍ جديدة.

دور البابوات في الحملات الصليبية

البابا إينوسنت الثالث (1160 أو 1161 . 16 يوليو 1216) هو بابا الكنيسة الكاثوليكية من 8 يناير 1198 وحتى وفاته. ولد باسم لوتاريو دي كونتي دي سينيي.

يعد إينوسنت الثالث واحدًا من أكثر البابوات نفوذًا وتأثيرًا في تاريخ البابوية، وقد كان له تأثير كبير على أنظمة الحكم المسيحية في أوروبا، حيث كان يرى أنه أعلى سلطة من كل ملوكأوروبا، وقد توسع في استخدام عقوبة الحرمان الكنسي وغير ذلك من العقوبات لإجبار الأمراء على الإذعان لقراراته، غير أن ذلك لم ينجح في جميع الحالات.

دعا إينوسنت الثالث إلى شن حملة صليبية ضد المسلمين في الأندلس والأراضي المقدسة وضد الهراطقة في جنوب فرنسا (الحملة الصليبية على الكثار)، وكان من أبرز قراراته تنظيم الحملة الصليبية الرابعة، التي كان مقررًا لها أن تستهدف الإسلام عن طريق مصر، لكن الظروف قادتها بدلًا من ذلك إلى التوجه نحو القسطنطينية، التي هاجمها الصليبيون واقتحموها سنة 600هـ/1204م

البابا هونوريوس الثالث (باللاتينية: Honorius III) . (ولد في روما سنة 1148 وتوفي بها في 18 مارس 1227) هو بابا الكنيسة الكاثوليكية من 18 يوليو 1216 إلى 18 مارس1227.

وأدرك البابا والغرب الأوربي والصليبيون في الشرق أن الاستيلاء على مصر هو الخطوة المنطقية والضرورية لتأمين وجودهم في بلاد الشام، وبات غزو مصر حتميًّا لضمان استرداد ما حرَّره صلاح الدين من أراضي مملكة بيت المقدس، بل وبيت المقدس ذاته. وهكذا أخذ البابا (إنوسنت الثالث) على عاتقه مهمَّة الدعوة إلى حملة صليبية جديدة يكون هدفها مصر.

وبدأت الاستعدادات لتجميع الحملة الجديدة، بَيْدَ أنَّ مشكلة نقل القوات والعتاد الصليبي الحربي إلى الشواطئ المصرية فرضت على قادة الصليبيين أن يدخلوا في مفاوضات مع جمهورية البندقية التجارية التي كانت تملك أقوى وأكبر الأساطيل العاملة في البحر المتوسط، وتمت المفاوضات، وتوجهت جيوش الصليبيين إلى البندقية لكي تنقلهم سفنها إلى شواطئ مصر، كان ذلك سنة 597هـ/ 1201م، لكن البندقية –التي كانت لها مصالح تجارية مع مصر– رأت أن تحوِّل اتجاه القوات إلى جهة أخرى. وفي أغسطس 1202م وصل إلى البندقية القائد الأعلى للصليبيين بونيفاس دي مونفيرات، وتواطأ بونيفاس مع دوق البندقية على تحويل الهجوم الذي نال تأييدًا مستترًا من بابا الفاتيكان الذي كان يشعر بالكراهية الشديدة للكنيسة الأرثوذكسية، ويريد توحيد الكنيستين: الشرقية والغربية تحت قيادته.

الاستيلاء على القسطنطينية

في القسطنطينية واجه الصليبيون خَصْمًا ضعيفًا؛ فبيزنطة قد أرهقتها الحملات السابقة والإتاوات والضرائب المتزايدة، وتناقص واردات الدولة؛ فوصلوا إلى شواطئها في 11 من شوال 599هـ/ 23 من يونيو 1203م، وبدأت العمليات العسكرية في 23 من شوال 599هـ/ 5 من يوليو 1203م، ففرَّ إمبراطور بيزنطة ألكسيوس الثالث، واقتحم الصليبيون القسطنطينية في (10 من شعبان 600هـ/ 13 من إبريل 1204م)، وسلبوها ونهبوها، وقتلوا أهلها المسيحيين على مدى ثلاثة أيام مرعبة، ثم أرسوا بها دعائم دولة جديدة تكون بديلاً للإمبراطورية البيزنطية، وعقدوا مع حاكمها الجديد معاهدة فصَّلوا بنودها حسب أهوائهم؛ وبذلك انتهت تلك الحملة الصليبية الرابعة بعد أن نسي قادتهم هدفهم الأصلي وهو غزو مصر.

في السنة التي تولى فيها السلطان العادل الأيوبي شقيق صلاح الدين منصب سلطنة الدولة الأيوبية في القاهرة، أي سنة 596هـ / 1200م، كانت فكرة الاستيلاء على بيت المقدس وضرب مصر لا تزال تشغل بال الأوربيين.

وحين رأى الصليبيون أن السلطان العادل يفرض نوعًا من الوحدة على أبناء البيت الأيوبي، خافوا أن يعودوا إلى الموقف المرعب الذي عانوا منه كثيرًا أيام صلاح الدين الأيوبي؛ لذا بدؤوا يفكرون في حملة صليبيةٍ جديدة.

وأدرك البابا والغرب الأوربي والصليبيون في الشرق أن الاستيلاء على مصر هو الخطوة المنطقية والضرورية لتأمين وجودهم في بلاد الشام، وبات غزو مصر حتميًّا لضمان استرداد ما حرَّره صلاح الدين من أراضي مملكة بيت المقدس، بل وبيت المقدس ذاته.

وهكذا أخذ البابا إنوسنت الثالث (1198 Innocent III م – 1216م) على عاتقه مهمّة الدعوة إلى حملة صليبية جديدة يكون هدفها مصر [1].

الحملة الصليبية الرابعة :

كان البابا إنوسنت الثالث قد أعرب علنًا عن رغبته في الدعوة إلى حرب صليبية جديدة، فكتب في سنة 1199م إلى إيمار بطريرك بيت المقدس يطلب منه تقريرًا وافيًا عن حال المملكة الصليبية التي أصبحت عكا عاصمة لها، وعن أحوال المسلمين وقوتهم في بلاد الشام ومصر. ثم بدأت الاستعدادات لتجميع حملة صليبية جديدة ضد مصر.

ولكي يمهد لنجاح هذه الحملة أصدر مرسوماً يحرم على التجار الأوروبيين التعامل مع المسلمين وحرم عليهم تزويد المسلمين بكل المواد التي تعينهم على القتال المسيحيين وخصوصاً مواد الحديد والخشب وما يستعان به في الحروب.

بدأ بإجراء المفاوضات مع الأمبراطور البيزنطي الكسيوس الثالث لتوحيد الكنيستين الشرقية والغربية، وأعطى تعليماته إلى فلك ده نولي Fulk de Neuilly، وهو قس ساذج، يدعو الملوك والسوقة إلى حرب صليبية رابعة. ويحث أهل الريف على الإنخراط في الحرب المقدسة وحمل السلاح لاستعادة بيت المقدس من أيدي المسلمين، واحتلال مصر.

وانضم عدد كبير من البارونات للاشتراك في هذه الحملة بغرض امتلاك أراضي جديدة بعيدة جداً عن أوروبا وليس بدافع من الدين فقط.

بيد أن مشكلة نقل قوات الحملة وعتادها إلى الشواطئ المصرية فرضت على الصليبين أن يدخلوا في مفاوضات شاقة مع جمهورية البندقية التجارية، التي كانت تملك أسطولا من أقوى الأساطيل العاملة في البحر المتوسط آنذاك لنقل الصليبيين، فاتفقوا على أن ينوب عنهم في تلك المفاوضات جفرى هاردوين في الاتفاق على تأجير سفن لنقل جنود الحملة إلى سواحل الشام، وسافر جفرى إلى جنوه وفاوض المسؤولين فيها لمساعدتهم.

ووافقت البندقية بعد مساومات طويلة، على أن تعد ما يلزم لنقل 4500 من الفرسان والخيول، و9000 من أتباعهم، وعشرين ألفاً من المشاة، وما يكفي هذه القوة من المؤن تسعة شهور، كل هذا في نظير 85 ألف مارك من فضية كولونية. ورضيت أيضاً أن تمدهم بخمسين سفينة حربية بشرط أن تختص جمهورية البندقية بنصف الغنائم الحربية، وأقسم دوق البندقية هنري داندلو وجفري هاردوين على تنفيذ هذه الاتفاقية التي عقدت بينهما في يونيه 1202م ثم شرع الصليبيون في المجئ إلى البندقية لكي تنقلهم بالسفن إلى المشرق [2].

موقف البندقية من الهجمات الصليبية على مصر

والغريب أن البنادقة لم يكن في نيتهم تقديم مساعدة ما لمهاجمة مصر، نظراً للامتيازات الكثيرة، والجليلة التي منحها الملك العادل للتجار الإيطاليين في مصر، حتى أن الدوق هنري داندلو حاكم البندقية أوفد سفراءه إلى القاهرة في نفس الوقت الذي كان ساوم الصليبيون حول نقل الحملة، وثم عقد اتفاق تجاري في ربيع سنة 1202م / 598هـ مع نائب الملك العادل، وقد أكد الدوق داندلو لمبعوث الملك العادل أنه لن يساعد أي حملة تتجه إلى مصر [3].

الحملة ضد القسطنطينية سنة 599هـ/ 1203م

على أي حال كانت أحداث الحملة الصليبية الرابعة مزيجا من المأساة والملهاة، فقد كان هدفها الأساسي مصر، وفي سنة597هـ/ ١٢٠١م توجهت مختلف الفرق الصليبية إلى البندقية لكي تنقلهم السفن إلى الشواطئ المصرية، ولكن الصليبين بعد سنة من هذا التاريخ كانوا يفرضون حصارهم على القسطنطينية العاصمة المسيحية، بدلًا من القاهرة العاصمة الإسلامية. ففي ٢٤ يونيو ١٢٠٣م كان الأسطول قد رسا في مياه خلقدونية قبالة القسطنطينية [4].

في 24 يونيه 1203م 600هـ وصلت سفن الحملة أمام القسطنطينية، ولم يتخذ الإمبراطور الكسيوس الثالث أي تدابير لمنع وصول جنود الحملة إليه، واعتقد الصليبيون والبنادقة فيما قاله الكسيوس الصغير من أن بيزنطة كلها سوف تهب للترحيب به ولكن الدهشة استبدت برجال الحملة حينما اكتشفوا أن جميع أبواب القسطنطينية أغلقت في وجوههم، وأن الجنود البيزنطيين مرابطون فوق أسوارها وفشلت المحاولات الأولى التي قام بها أسطول الصليبيين لمهاجمة الأسوار وبعد قتال عنيف تمكن البنادقة من فتح ثغرة بالأسوار في 17يوليو.

الصليبيون يدمرون القسطنطينية

وأثناء ذلك حدثت عدة اضطرابات داخلية أدت غلى اعتلاء الكسيوس الخامس إمبراطورًا للقسطنطينية في رجب 600هـ / فبراير سنة 1204م، وقد وقف الكسيوس الخامس موقفاً مضاداً من الصليبيين وأيدا الاتجاه الشعبي الكاره لهم، وأمام ذلك التطور اتجاه الصليبيون إلى مهاجمة القسطنطينية.

شن الصليبيون هجومهم ضد القسطنطينية، وفي 602هـ / مارس ١٢٠٤م كانوا يرسون دعائم دولة جديدة تحل محل الإمبراطورية البيزنطية بمعاهدة فصلوها على أهوائهم. وفي ١٣ أبريل 1204م تم اقتحام المدينة، وقد حل بالمدينة القتل والسلب والنهب والتدمير على مدى ثلاثة أيام مرعبة، فقُتل

الكثير من البيزنطيين واغتصبت الراهبات في الأديرة، ودخل الجنود الذين لعبت الخمر برؤوسهم كنيسة آيا صوفيا، يقول ابن كثير رحمه الله: "فِي هَذِهِ السَّنَةِ (600هـ) كَانَتِ الْفِرِنْجُ قَدْ جَمَعُوا خلقا منهم ليستعيدوا بيت المقدس من أيدي المسلمين، فأشغلهم الله عن ذلك بقتال الروم، وذلك أنهم اجْتَازُوا فِي طَرِيقِهِمْ بِالْقُسْطَنْطِينِيَّةِ فَوَجَدُوا مُلُوكَهَا قَدِ اخْتَلَفُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ، فَحَاصَرُوهَا حَتَّى فَتَحُوهَا قَسْرًا، وأباحوها ثلاثة أيام قتلا وأسرا، وأحرقوا أَكْثَرُ مِنْ رُبْعِهَا، وَمَا أَصْبَحَ أَحَدٌ مِنَ الروم في هذه الأيام الثَّلَاثَةِ إِلَّا قَتِيلًا أَوْ فَقِيرًا أَوْ مَكْبُولًا أَوْ أَسِيرًا، وَلَجَأَ عَامَّةُ مَنْ بَقِيَ مِنْهَا إلى كنيستها العظمى المسماة باياصوفيا، فقصدهم الْفِرِنْجُ فَخَرَجَ إِلَيْهِمُ الْقِسِّيسُونَ بِالْأَنَاجِيلِ لِيَتَوَسَّلُوا إِلَيْهِمْ ويتلوا ما فيها عليهم، فما التفتوا إلى شيء من ذلك، بَلْ قَتَلُوهُمْ أَجْمَعِينَ أَكْتَعِينَ أَبْصَعِينَ وَأَخَذُوا مَا كَانَ فِي الْكَنِيسَةِ مِنَ الْحُلِيِّ وَالْأَذْهَابِ وَالْأَمْوَالِ الَّتِي لَا تُحْصَى وَلَا تُعَدُّ، وَأَخَذُوا مَا كَانَ عَلَى الصُّلْبَانِ وَالْحِيطَانِ، وَالْحَمْدُ لله الرَّحِيمِ الرَّحْمَنِ، الَّذِي مَا شَاءَ كان".

وقد تمنى أحد مؤرخيهم نيكتاس خونياتس أن تسقط مدينته على أيدي المسلمين؛ لأنهم ما كانوا ليفعلوا بها ما فعل اللاتين.

ومن الملاحظ أن زعماء وقادة الحملة الصليبية الرابعة نقلوا العديد من التحف والنفائس التي بيعت في أسواق دمشق، والقاهرة وحلب، وكذلك الأسواق الأوروبية حتى أن الجياد البرونزية الأربعة التي كانت تزين ميدان السباق في العاصمة البيزنطية، قام داندلو بحملها إلى البندقية، وحتى اليوم تزين واجهة كاندرائية القديس مارك في فينيسيا، دليلاً على واحدة من أكبر عمليات السلب والنهب التي شهدتها القرون الوسطى.

وهكذا؛ يثبت لنا الصليبيون من جديد، أنهم أهل قتل، وتدمير، وسلب ونهب، وها هي مدينة قسطنطين الرائعة تتعرض للمصير المأساوي الذي تعرضت له مدينة بيت المقدس منذ ما يزيد على القرن من الزمان، غير أن الفارق الجوهري أن بيت المقدس كانت مدينة مقدسة للسيادة الإسلامية، أما القسطنطينية فهي مدينة مسيحية وعاصمة الإمبراطورية البيزنطية الإرثوذكسية، والتي قامت بدور درع المسيحية الشرقية في مواجهة الإسلام لعدة قرون وفي هذا دليل واضح على أن الصليبيين في سبيل أطماعهم الجشعة التي لا تحد، لم يفرقوا بين مدن إسلامية أو مسيحية.

إننا لأول مرة منذ أعلان مشروع أوربان الثاني 489هـ / 1095م، نجد أن الحركة الصليبية تتجه إلى تلك الوجهة وتسقط عاصمة أكبر إمبراطورية مسيحية في المنطقة على مدى المرحلة الواقعة من القرن العاشر الميلادي / الرابع الهجري إلى القرن الثالث عشر الميلادي / السابع الهجري، وطوال هذه القرون لم تسقط بيزنطة على أيدي الفرس والروس، والنورمان، والمسلمين وغيرهم، إلا أن سقوطها كان على يد قوة مسيحية ممثلة في الغرب الأوروبي، ولذلك لا عجب والأمر كذلك أن تعتبر عام 1204م/602هـ عامًا فارقًا في تاريخ الحملات الصليبية [5].

الهجوم على رشيد المصرية

ومع أن إنوسنت الثالث أدان انحراف الحملة عن هدفها، إلا أنه سرعان ما بلع احتجاجاته حين رأى

أن سقوط عاصمة قسطنطنطين تحت سنابك الخيول الصليبية يمكن أن يحقق أمل البابوية القديم في السيطرة على الكنيسة البيزنطية الأرثوذكسية. ولكن بعض الذين لم تعجبهم خطط الإغارة على العاصمة البيزنطية، وتغيير هدف الحملة واصلوا حتى شواطئ بلاد الشام. وهناك تعاونوا مع الصليبين المستوطنين لشن هجوم هزيل ضد مدينة رشيد المصرية ومدينة فوة القريبة منها. وقد ظلوا في عاراتهم سنة ٦٠٠ هـ/ ١٢٠٤م خمسة أيام.

معاهدة مع الملك العادل

وسرعان ما أدرك الصليبيون في عكا استحالة قدوم حملة صليبية لنجدتهم، ومن ثم سعى ملك عكا أمالريك الثاني (Amalric II) لعقد هدنة مع السلطان العادل الأيوبي الذي رحب بعقد الهدنة

نظرا لازدهار التجارة ومكاسبها في حال السلم من ناحية، وبسبب متاعبه الداخلية مع بقية الأيوبيين من ناحية أخرى. وتم عقد هدنة مدتها ست سنوات في أواخر سنة ١٢٠٤م.

يقول ابن كثير رحمه الله: "ثُمَّ إِنَّ الْفِرِنْجَ قَصَدُوا بِلَادَ الشَّامِ وَقَدْ تَقَوَّوْا بِمُلْكِهِمُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةَ، فَنَزَلُوا عَكَّا وَأَغَارُوا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ بِلَادِ الْإِسْلَامِ مِنْ نَاحِيَةِ الْغُورِ وتلك الأراضي، فقتلوا وسبوا، فنهض إليهم العادل وكان بدمشق، واستدعى الجيوش المصرية والشرقية وَنَازَلَهُمْ بِالْقُرْبِ مِنْ عَكَّا، فَكَانَ بَيْنَهُمْ قِتَالٌ شديد وحصار عظيم، ثُمَّ وَقَعَ الصُّلْحُ بَيْنَهُمْ وَالْهُدْنَةُ وَأَطْلَقَ لَهُمْ شيئا من البلاد فانا لله وإنا إليه راجعون" [6].

نتائج الحملة الصليبية الرابعة

كان للحملة الصليبية الرابعة نتائج عديدة منها:

أ- كان للحملة الرابعة تأثير بالغ على مسار المشروع الصليبي بأكمله، ويكفي أنه نتج عنه سقوط القسطنطينية لأول مرة في تاريخها منذ أن شيدها قسطنطين الكبير وافتتحها عام 330م، وبالتالي فقد أدت الحملة الصليبية الرابعة إلى تغيير خريطة التوزيعات السياسية لشرق أوروبا إلى حد كبير وأزالت السيادة البيزنطية قسمتها إلى عدة مناطق وأعادت تركيب المنطقة على أساس المصالح الاقتصادية، والسياسية الجديدة.

ب- إن تلك الحملة جعلت الكثيرين من الصليبيين في بلاد الشام يقدمون إلى الإمبراطورية اللاتينية في القسطنطينية، بحثاً عن غنائم لهم على نحو أضعف الكيان الصليبي في بلاد الشام.

جـ- ظهر العامل الاقتصادي ليمثل عنصراً مؤثراً في تلك المرحلة، ولا ريب في أن الدور البندقي الفعال والتنافس مع الإمبراطورية البيزنطية حسم لصالح البندقية.

د- إن النكبة التي نكبت بها الإمبراطورية البيزنطية عام 1204م/602هـ أدت إلى التمهيد - بصورة أو بأخرى- لحدوث الإنهيار النهائي لها على أيدي الأتراك العثمانيين عام 1453م/ 857هـ في عهد قسطنطين الحادي عشر (1449م - 1453م/853 - 857هـ) في عهد السلطان محمد الفاتح، ونستطيع وصف مرحلة القرنين والنصف قرن بين التاريخين المذكورين بأنها مرحلة احتضار بيزنطي طويل الأجل انتهى بأن خرجت بيزنطة بعده من التاريخ بجدارة، مثلما دخلته من قبل بجدارة أيضاً، وأصبحت عاصمة الدولة العثمانية وعادت إلى مركز الريادة العالمي من جديد وساهمت في اشعاع نور الحضارة والعلم والمعرفة في أنحاء المعمورة.

والجدير بالذكر هنا؛ أن البيزنطيين تمكنوا من استعادة عاصمتهم الجريحة في عام (1261م / 660هـ) على يدي ميخائيل الثامن باليولوغوس (1259 - 1282م) حيث استمرت المملكة اللاتينية هناك من (1204م / 602هـ إلى 1261م / 660هـ) سبعة وخمسين عامًا غير أن الإمبراطورية البيزنطية العائدة لم تكن قط نفس تلك الإمبراطورية السابقة، لقد عادت ظلاً شاحبًا بعد أن هدها الغزو اللاتيني لمدينة القسطنطينية [7].

الحملة الصليبية الخامسة

المشرق الإسلامي قبل الحملة الصليبية الخامسة

دور البابا هوونريوس في الحملة الصليبية الخامسة

. حصلت الحملة الصليبية الخامسة على الدعم من مجمع لاتيران الي انعقد سنة 1215، وبدأ هونوريوس في الإعداد لإطلاق هذه الحملة سنة 1217. وقد فرض البابا على نفسه وعلى الكاردينالات المساهمة بعُشر دخلهم لثلاث سنوات لتغطية النفقات الهائلة التي تطلبتها تلك الحملة، كما فرض على بقية رجال الدين المساهمة بجزء من اثني عشر جزءًا من دخولهم. ورغم أن هذا القرار أدى إلى جمع مبالغ كبيرة من المال، إلا أن هذه المبالغ لم تكن كافية لتمويل الحملة الصليبية الشاملة التي كان يصبو إليها هونوريوس الثالث.

رأى هونوريوس أن الرجل الوحيد في أوروبا القادر على القيام بمهمة استرداد الأرض المقدسة هو تلميذه السابق الإمبراطور فردريك الثاني إمبراطور ألمانيا. وكان فردريك الثاني وحكام آخرون قد قطعوا على أنفسهم عهدًا سنة 1217 باسترداد الأرض المقدسة، غير أن فردريك الثاني حنث بالعهد فاضطر هونوريوس الثالث مجددًا إلى تأجيل موعد انطلاق الحملة.

في أبريل 1220 انتخب فردريك الثاني إمبراطورًا، وفي 22 نوفمبر 1220 توج إمبراطورًا رومانيًا مقدسًا في مدينة روما.

ظل فردريك الثاني على تخاذله رغم ضغوط هونوريوس الثالث وإصراره، وفشلت الحملة على مصر باسترداد المسلمين لمدينة دمياط في 8 سبتمبر 1221.

كان معظم حكام أوروبا منهمكين في حروبهم الخاصة ولم يكن بإمكانهم ترك بلادهم لفترات طويلة. وبعد طول انتظار تحرك الملك أندرو الثاني ملك المجر وتبعه إقلاع أسطول صليبي من منطقة أسافل نهر الراين نحو الأرض المقدسة. وقد استولوا على دمياط وبضعة أماكن أخرى في مصر، ولكن قواتهم افتقرت إلى الوحدة ومزقها التنافس والصراعات بين قادتها وبين بيلاجيوس . ممثل البابا . مما أدى إلى فشل الحملة.

تعدى هذا الخلاف إلى طور الحرب والقتال مما استدعى تدخل الملك محمد أبي بكر الأيوبي الملقب بالعادل، أخي صلاح الدين، ورفيقة على درب الجهاد المقدس من البداية، وكان من أكثر الناس حزمًا وسياسة وعدلاً، فاستطاع أن يقضي على هذا الخلاف، وأن يتخذ الخطوة الصحيحة في هذا الظرف الراهن، فأعاد توحيد الجبهة الشامية والمصرية تحت إمرته وعادت للبلاد وحدتها وقتها. (في ذلك درس وعبرة وعظة لمنْ يرغب في البحث عن أسباب النجاح، وتجني عوامل الفشل مهما كانت قوة البلاد، وتقدمها طالما كانت متفرقة ومختلفة فإن الهزيمة والفشل هو طريقها ولو بعد حين)

. ورغم حكمة الملك العادل الأيوبي ورؤيته لما جرى للبلاد عندما تقسمت بين أبناء صلاح الدين، وحجم الخلاف الذي وقع بينهم إلا أنه لم يستفد من هذا الدرس المجاني من أبناء أخيه، وأقدم على نفس الخطأ فقسم البلاد بين أبنائه الثلاثة كالآتي:

. الأمير محمد الملقب بالكامل: على الديار المصرية وفلسطين.

. الأمير عيسى الملقب بالمعظم: على دمشق وباقي الشام.

. الأمير موسى الملقب بالأشرف: على منطقة الجزيرة 'بين الشام والعراق'.

ونظرا لاستمرار الحملات الصليبية على الشام ومصر لم يظهر بين هؤلاء الثلاثة خلافات بسبب تصديهم للحملات الصليبية واشتغالهم بقتال الأعداء عن الخلافات المتوقعة.

الإعداد للحملة الصليبية الخامسة

البابا انوسينت الثالث دشن الحملة الصليبية الخامسة

لم يكف أبدًا الباباوات في روما عن إثارة عزائم وحفائظ ملوك وأمراء أوروبا من أجل استئناف سلسلة الحملات الصليبية، التي هدأت قليلاً بعد وفاة صلاح الدين والفشل المدوي للحملة الصليبية الرابعة، التي بدلاً من أن تتجه لقتال المسلمين بالشام، اتجهت إلى قتال النصارى الأرثوذكس بالقسطنطينية وذلك سنة 600هـ، واستغل البابا 'أنوسنت' الثالث فرصة موت الملك المجاهد العادل الأيوبي وحشد جيشًا كبيرًا يقوده الفارس 'جان دي بريين' وكان مرشح البابوية ليكون ملكًا على بيت المقدس إذا استعادها من المسلمين.

الحملة الصليبية الخامسة

معركة دمياط كانت سببا في إنهاء الحملة الصليبية الخامسة بفشل ذريع وخسارة ضخمة على الرغم من غياب القيادة الإسلامية الصالحة في ذلك الوقت، واستمرت معركة دمياط لأكثر من

ثلاث سنوات، ولكن ما هي الأسباب الحقيقية التي كانت وراء مجيء الحملة الصليبية الخامسة لبلاد المسلمين؟ وكيف صمدت المقاومة الإسلامية أمامهم؟

هذهالمعركة هي أشبه ما يكون بالملاحم الأسطورية التي تروى كضرب من الخيال والإمتاع،ذلك لأنها استمرت أكثر من ثلاث سنوات، وكان بابا روما "أنوسنت الثالث"يخطط ويدبر لحملة صليبية جديدة على بلاد الإسلام بعد وفاة الناصر صلاح الدين،وبالفعل انطلقت الحملة الصليبية الرابعة سنة 600هـ، ولكنها غيرت مسارها واتجهت إلىالقسطنطينية لإخضاع الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية لسلطان الكنيسة الغربيةالكاثوليكية، وبالجملة فشلت هذه الحملة فشلاً ذريعًا، لذلك نجد معظم المؤرخينالأوربيين يعرض عن ذكر هذه الحملة ولا يضعها أصلاً في عداد الحملات الصليبية.

ولم يفت الفشل الذريع لهذه الحملة في عضد البابا "أنوسنت الثالث" الذي أخذ في التحضير لحملة جديدة على بلاد الإسلام يشترك فيها من لم تتلطخ يداه في الحملةالسابقة، فلبى النداء كل من "ليوبولد" ملك النمسا، و"أندريه الثاني"ملك المجر، و"بهمايو" ملك قبرص وغيرهم، وقد تقرر تغيير خط سير الحملات المعتادة، حيث كانت مصر هي الهدف هذه المرة وليست الشام، وذلك لأسباب عديدة منها ضرب مركز الثقل في العالم الإسلامي وهي مصر، ومنها رغبة المدن التجارية الإيطالية في السيطرة على تجارة البحر المتوسط، وضرب التجارة المصرية في عقر دارها بالاستيلاء على ميناء دمياط الذي كان أهم موانئ الشرق، وأهمها بالتأكيد استعادة بيت المقدس.

وقبلأن تنطلق الحملة الصليبية الخامسة هلك البابا "أنوسنت الثالث" وخلفه البابا "هونوريوس الثالث" الذي أراد أن يؤكد على نفوذ وسيادة الكنيسة الكاثوليكية على الحملة، فأرسل الكاردنيال البرتغالي "بلاجيوس" ليكون القائد العام للحملة على الرغم من انعدام الخبرة والكفاءة الحربية لهذا الرجل،وهذا ما سيدفع الصليبيون ثمنه غاليًا بعد ذلك.

كانت بلاد الشام ومصر في هذه الفترة تحت حكم الأسرة الأيوبية وكبيرها الملك العادل أبي بكر الأيوبي وهو أخو الناصر صلاح الدين ورفيق كفاحه وشريك جهاده ضد الصليبيين ،فلما وصلت أخبار الحملة الصليبية الخامسة للملك العادل وكان بالشام وقتها، أسرع وعسكر بجنوده عند مدينة "بيسان" بالأردن، ذلك لأن الحملة الصليبية قدنزلت بميناء "عكا" وكان ما يزال وقتها تحت السيطرة

الصليبية، ولم تكن الحملة وقتها تنوي التوغل في بلاد الشام بل كانت تنوي الانتقال من "عكا" إلى "دمياط"، ولكن حدث أن انفصل ملك المجر "أندريه الثاني" ومعه عدد كبير من الصليبيين عن الحملة وعاد إلى بلاده، فضعفت الحملة وانتظرت قليلاً حتى يأتيها الإمدادات من غرب أوربا.

خلال هذه الفترة أخذ الصليبيون في الإغارة على قرى ومدن الشام لجمع المؤن والأموال،والملك العادل الأيوبي لا يقوى على ردهم لضخامة جيوشهم، وعاثوا في الشام فسادًا، في حين اجتهد العادل الأيوبي وبنوه الأمراء الثلاثة (محمد – موسى – عيسى) في حفظ أهم مدن الشام من عدوان الصليبيين، وفي أول سنة 615هـ – 1218م، اتجهت الحملة الصليبية بكامل قوتها إلى ميناء دمياط ونزلوا على الميناء في موقع اسمه "جيزة دمياط" وهي مثالية من وجهة النظر الدفاعية وليس الهجومية، وكان هذا التحول القتالي مفاجأة مذهلة للسلطان العادل وابنه الأمير محمد الملقب بالكامل والذي كان واليًا على مصر، فخرج الأمير محمد بالجيش المصري للدفاع عن دمياط، وكان مفتاح دمياط برجًا منيعًا في غاية القوة والصلابة فيه سلاسل من حديد ضخمة تمتد بطول النيل لتمنع أي مراكب تريد الإغارة على البلاد من هذا الطريق.

ظلال وضع متجمدًا طيلة أربعة أشهر، الصليبيون يحاولون اقتحام برج السلسلة والجيش المصري يدافع عن دمياط بكل قوة حتى استطاع الصليبيون الاستيلاء على البرج بعد معركة طاحنة مع المدافعين عنه، ولما وصلت أنباء سقوط البرج للسلطان العادل الأيوبي تأوه لذلك بشدة وأصابه الحزن وقتله الهم في 7 جمادى الآخرة سنة 615هـ.

بعد سقوط برج السلسلة حاول الأمير الكامل حاكم مصر إعاقة تقدم الصليبيين، فصنع جسرًا عظيمًا أنفق عليه سبعين ألف دينار، فقاتل الصليبيون عليه قتالاً عنيفًا حتى قطعوه ،فأمر الكامل بتفريق عدد من المراكب في النيل ليسد مجرى السفن، فعدل الصليبيون إلى خليج هناك يعرف بالأزرق وكان النيل يجري فيه قديمًا، فحفروه حفرًا عميقًا وأجروا فيه المياه إلى البحر المتوسط، مما يوضح مدى إصرار الصليبيين على القتال وصبرهم على ذلك، ولكن الوضع ظل متجمدًا بين الصليبيين والجيوش المصرية.

ظلت المقاومة الإسلامية للصليبيين على أشدها باسلة رائعة، ولكن وقعت حادثة غيرت مسار القتال عندما تآمر أحد الأمراء المماليك واسمه "عماد الدين ابن المشطوب "على السلطان الكامل حاكم مصر ووارث مكان أبيه السلطان العادل، وذلك من أجل عزله وتولية أخيه الأمير "الفائز" مكانه، فترك السلطان الكامل معسكر الجيش في دمياط وعاد إلى القاهرة لتدارك الفتنة، وعندما علم الجنود قرار قائدهم تركوا جميعًا المعسكر، وأصبحت المدينة مفتوحة أمام الصليبيين.

لميكن السلطان الكامل مثل أعمامه الأبطال صلاح الدين وغيره، فلقد كان يميل للمهادنة والدعة والمسالمة، يكره القتال، شديد الذعر في ميادين القتال، بالجملة لم يكن رجل الساعة أو فارس المناسبة، فلما رأى اقتراب الصليبيين من احتلال دمياط عرض عليهم عرضًا لا يصدقه عقل حتى يرجعوا عن دمياط، حيث عرض عليهم تسليم بيت المقدس وعسقلان وطبرية وصيدا وجبلة واللاذقية وجميع ما فتحه صلاح الدين، وهكذا قرر الكامل أن يشتري السلام بالتنازل عن كل ما فتحه صلاح الدين بدماء الشهداء وجهاد السنين..

ولكن واصل الصليبيون قتالهم حتى اقتحموا المدينة في 25 شعبان 616هـ، وارتكبوا واحدة من مذابحهم المروعة الشهيرة، قتلوا خلالها جميع أهل دمياط وطمسوا معالم الإسلام فيها، وحولوها إلى مدينة صليبية خالصة، ولكن نشب الخلاف بينهم بحيث مضى عام ونصف وهم غير قادرين على القيام بأية عمليات عسكرية حاسمة، وانتهى الخلاف بأن خرج القائد العسكري "حنا برين" من دمياط عائدًا إلى بلاده مغاضبًا، وأصبح الأحمق "بلاجيوس" القائد الوحيد للحملة.

خلال هذه الفترة استقرت الأمور في البيت الأيوبي واصطلح الإخوة الثلاثة (محمد الكامل –عيسى المعظم – موسى الأشرف) وانتهت المشاحنات بينهم واتفقوا على مواجهة الصليبيين ،وقد عسكر السلطان الكامل عند مدينة المنصورة في مكان حصين شيده الكامل في فترة الهدوء الصليبي، ودعا الناس إلى التطوع لصد الصليبيين عن مصر وشن المسلمون هجمات متتالية على المعسكر الصليبي وأسروا سبع سفن صليبية كبيرة والكثير من الجنود..

وتضعضع موقف الصليبيين ولكن وصول قوات صليبية جديدة من ألمانيا شجع الكاردنيال الأحمق "بلاجيوس" على تنفيذ خطته للزحف نحو القاهرة بعد أن تأخرت كثيرًا، ولكنه اختار الوقت

غير المناسب حيث فيضان نهر النيل، فوجد الصليبيون أنفسهم والماء قد أغرق أكثر الأرض التي هم عليها، ووجدوا أنفسهم محاصرين بالجيش المصري جنوبًا والجيش الشامي من ناحية الشمال، وهم قد تركوا معسكرهم الحصين بدمياط عندما خرجوا للقاهرة بأمر الأحمق "بلاجيوس"، وأصبح وضع الصليبيين شديد التأزم، وألقي الرعب في قلوبهم وركبتهم الذلة والصغار، واضطر المغرور "بلاجيوس" إلى طلب الصلح والهدنة، على أن يخرجوا من دمياط بغير عوض.

اختلف قادة معسكر المسلمين حول طلب الهدنة، ففي حين وافق عليها الكامل، رأى إخوته وآخرون انتهاز الفرصة والقضاء على الصليبيين، ولكن السلطان الكامل المذعور بطبعه من أيقتال وافق على العرض، وفي يوم الأربعاء 19 رجب سنة 618هـ/ سبتمبر 1221م، دخل المسلمون المدينة الأسيرة، وهكذا انتهت الحملة الصليبية الخامسة بفشل ذريع وخسارة ضخمة على الرغم من غياب القيادة الإسلامية الصالحة لهذا الظرف.

هزيمة الحملة الصليبية الخامسة

تولي الكامل بعد ابيه العادل سنة 615 هج/ 1218م في ظروف حرجة حيث استولي الصليبيون علي دمياط ، فراح يستجد بالمسلمين من حوله ، و لكن حكام المسلمين كانوا في هول من هجمات المغول التي بدأت تدق أبواب بغداد بعد أن اكتسحت جحافلهم بخاري و سمرقند و بالكاه و حولتها إلي خرائب ، و سوت القصور و المكتبات و المدارس و المساجد بالأرض و استعملتها اصطبلات للخيل.

لذلك عمد السلطان الكامل إلي أن يتصل بالصليبيين ليفاوضهم و عرض عليهم أن يتنازل عن بيت المقدس مقابل أن يخرج الصليبيون من دمياط. و لم يتردد إمبراطور فريدريك في أن يقبل

هذا العرض السخي. و لكن البابا في روما رفض العرض و وبخ الإمبراطور فريدريك علي قبوله العرض. فعرض السلطان الكامل عرض أسخي و هي أن يتنازل عن نابلس و صيدا و عسقلان و طبرية و اللاذقية و سائر ما فتحه السلطان صلاح الدين من بلاد الساحل. و لكن البابا رفض هذا

كله و هدد فريدريك أن ينزع منه مملكته في أوروبا إذا عقد صلحاً مع المسلمين. فلم يبق للسلطان الكامل إلا ان يقاتل ليحرر دمياط من الصليبيين.

كان الموقف ينبئ بانتصار الصليبيين فهم أكثر سلاحا وعدة ،و لكنهم لم يكونوا يعرفون طبيعة الأرض المصرية و ما تمتلئ به من قنوات الماء. فلما تقدم الصليبيون قليلاً قام المصريون بفتح سدود المياه من كل جانب فتدفقت المياه و أغرقت القوات الصليبية في بحر من الوحل و لم يستطيعوا التقدم خطوة واحدة ،فشقوا طريقهم وسط الوحلة مرتدين إلي الشاطئ و استقلوا سفنهم عائدين إلي بلادهم سنة 1221، و بذلك فشلت الحملة الصليبية الخامسة.

تنازل السلطان الكامل عن القدس للصليبيين

ظل السلطان الكامل علي خوفه من الصليبيين الذين بدأوا يستهدفون مصر في حملاتهم، و ظل يلوح لهم برغبته في الصلح و السلام و ظل يلح عليهم أن يأخذوا القدس مقابل أن يتركوه آمناً مطمئناً ، و في النهاية قبل فريدريك الثاني قائد الحملة الصليبية السادسة علي مصرعرض السلطان الكامل و تسلم منه القدس مقابل عدم شن هجمات صليبية جديدة علي مصر.

يروي المقريزي فيقول : إن الملك الكامل أرسل رجاله فنودي بالقدس بخروج المسلمين منها لتسليمه إلي الفرنج ....فاستعظم المسلمون ذلك ، و أكبروه ، ووجدوا من الوهن و التألم مالا يمكن وصفه. ...فاشتد البكاء و عظم الصراخ و العويل ، و حضر الأئمة و المؤذنون من القدس إلي مخيم الكامل ، و أذنوا علي بابه في غير وقت الآذان .

السلطان الكامل يعقد صلحاً مع الإمبراطور فريدريك الثاني

و دخل فريدريك القدس و استلمها من القاضي شمس الدين يوم الأحد 18 مارس 1229 م 626 هج، و دخل كنيسة القيامة و توج نفسه ملكاً علي القدس. و بذلك عادت القدس للصليبيين مؤقتاً حتي جاء نجم الدين أيوب و استردها مرة أخري كما سنري

أكمل السلطان الكامل بناء قلعة الجبل ، كما أنشأ مدينة جديدة هي مدينة المنصورة في الموقع الذي انتصر فيه علي الحملة الصليبية الخامسة.

---

[1] قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية، كتاب عالم المعرفة مايو 1990م، ص125.

[2] ول ديورانت: قصة الحضارة، ترجمة: الدكتور زكي نجيب محمُود وآخرين، الناشر: دار الجيل، بيروت – لبنان، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، عام النشر: 1408هـ – 1988م، 15/ 46– 47.

[3] ول ديورانت: قصة الحضارة، 15/ 47.

[4] قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية، ص122.

[5] ابن كثير: البداية والنهاية، الناشر: دار الفكر، عام النشر: 1407هـ – 1986م، 13/ 36– 37.

– محمد مؤنس عوض: الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية، الطبعة الأولى 1999/ 2000م، ص266– 269.

– قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية، ص121– 122.

[6] قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية، ص122– 123.

[7] محمد مؤنس عوض: الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب، ص273– 275.

– علي الصلابي: الأيوبيون بعد صلاح الدين، الناشر: دار المعرفة للطباعة والنشر، الطبعة: الأولى، 1/ 147– 150.

مقدمات الحملة الصليبية السادسة

دور البابا غريغوري التاسع في الحملات الصليبية

ولد البابا غريغوري في سة 1145م–وتوفي في 22 أغسطس 1241م)واسمه الحقيقي اوجلينو دي كونتي، تقلد البابوية في 19 مارس 1227م وحتى وفاته.

بعد ترقيته إلى كرسي البابوية في ختام الانتخابات البابوية عام 1227م، قام كونراد فون ماربورغ بتكليف غريغوري التاسع بالقضاء على الهرطقة في كل أنحاء ألمانيا. برعاية غريغوريوس، أصبح كونراد قاتل ترعاه الدولة وقام بمسلسل من الإرهاب في الريف لم يتوقف إلا عن طريق اغتياله في 1233م.

وما ان لبس غريغوري رداء البابوية حتى بدا بتوجيه الانتقادات اللاذعة إلى الامبراطور الألماني فردريك الثاني واتهمه بالمماطلة في تنفيذ وعوده بشن حرب صليبية جديدة على الاراضي الفسلطينية وقد وصل الامر إلى الحرمان الكنسي واعلان ان فردريك خارج عن رحمه الكنسية. وأخيراً أدرك فريدريك الثاني أن مصلحته تستدعي القيام بحملة صليبية على فلسطين، فتشكلت بقيادته الحملة الصليبية السادسة سنة 1228 وانطلقت إلى المشرق.

ووصل عكا على رأس قوة صغيرة حيث لم يقصد الحرب، وإنما اعتمد على الأساليب الدبلوماسية والمفاوضات للحصول على كسب سريع. وتمكن فريدريك الثاني في يافا من عقد معاهدة مع السلطان الأيوبي الكامل، حصل فيها على القدس وبيت لحم وشريط ساحلي ضيق في فلسطين،

وبذا حقق نصراً عجزت عنه الحملات الصليبية الكبيرة التي وفدت إلى فلسطين بعد تحرير القدس سنة 1187م على يد صلاح الدين الأيوبي، وتوج فريدريك نفسه ملكاً على القدس عام 1129. لم تطل إقامة فريدريك الثاني في فلسطين، بل عاد بسرعة إلى إيطاليا فوجد قوات البابا غريغوري التاسع قد استغلت فرصة غيابه وأغارت على أملاكه في جنوبي إيطاليا، بل بلغ الأمر بالبابا أن أذاع خبر موت الامبراطور في المشرق ليضعف مركزه في إيطاليا وألمانيا. ولما وصل الامبراطور الألماني إلى إيطاليا اضطر البابا لعقد الصلح معه، وبمقتضى هذا الصلح رفع عنه قرار الحرمان من رحمة الكنيسة، وسمي هذا صلح «سان جرمانو» (1230م)، وقد استمر النزاع بين البابوية والامبراطورية حتى وفاة الامبراطور فريدريك الثاني في إيطاليا وهو في طريقه لمواجهة خصومه في شمالي إيطاليا

كانت الحملة الصليبية الخامسة ضد دمياط آخر محاولات البابوية لتوجيه حملة صليبية تحت قيادتها فقط ولحسابها منفردة. ومن ناحية أخرى فإن الحملات الصليبية في القرن الثالث عشر الميلادي اتخذت طابعا مخالفا لحملات القرن الثاني عشر الميلادي . فالحملة الصليبية الثانية جاءت رد فعل على سقوط الرها سنة 539هـ / ١١٤٤م في يد عماد الدين زنكي، كما أن الحملة الصليبية الثالثة كانت استجابة للكارثة التي حاقت بالصليبيين في فلسطين بعد معركة حطين وسقوط بيت المقدس سنة 583هـ / ١١٨٧م.

أما حملات القرن الثالث عشر الميلادي فكانت نتيجة الضعف الدائم الذي ألم بالمستوطنات الصليبية، ولم تبرأ منه منذ عمليات صلاح الدين الأيوبي على الرغم من أن فرنج الشرق لم يواجهوا أي خطر حقيقي طوال فترة الدولة الأيوبية بعد وفاة صلاح الدين. وعلى الرغم من أن شواطئ فلسطين شهدت في هذا القرن موجات متصلة من الفرسان والمغامرين وشذاذ الآفاق والباحثين عن الفرص تحت راية الصليب، وعلى الرغم من أن بعض هذه الموجات كانت عاتية تضم فيالق من الفرسان والمحاربين وبعضها كان أقرب إلى الرذاذ الخفيف إلا أن هذا المدد المتواصل لم يستطع أن يقدم شيئا للكيان الصليبي الذي كان يمضي إلى نهايته المحتومة.

ولأن فشل حملة دمياط كان ضربة موجعة لهيبة البابوية، فقد أخذ البلاط البابوي يضغط بشدة من أجل شن حملة صليبية جديدة. ولن ندخل في تفاصيل التقلبات السياسية في أوروبا آنذاك. ولكن ما يهمنا أن الصليبيين في فلسطين لم يحاولوا الإفادة من سياسة المهادنة التي اتبعها السلطان الكامل الأيوبي أو أن يستجيبوا لها، وكذلك كان حال البابوية.

الإمبراطور الألماني فردريك الثاني II Frederick

كان موقف الإمبراطور الألماني فردريك II Frederick (١٢١٥م – ١٢٥٠م) مختلفا؛ فقد أبدى استعدادا واضحا للإفادة من هذه الروح السلمية البادية في موقف السلطان الكامل الأيوبي. ويرجع السبب في ذلك إلى فردريك الثاني نفسه إذ لم يكن صليبيا مثل غيره من ملوك أوروبا اللذين قادوا الحملات الصليبية. لقد كان هذا الإمبراطور الذي عرف باسم أعجوبة الدنيا صقليا تربى في ظل مظاهر الحضارة العربية التي فرضت نفسها في كل مكان من جزيرة صقلية التي نشأ في أحضانها.

ولم يكن الإسلام بالنسبة له مجرد كتاب مغلق كما أن المسلمين لم يكونوا مجرد قوم من الكفار يستحقون الموت. فقد كان ذلك الإمبراطور يكن للمسلمين ودينهم وحضارتهم تقديرا كبيرا. وكان واسع العلم غزير المعرفة يجيد من لغات الدنيا آنذاك ست لغات هي العربية واليونانية واللاتينية والإيطالية والألمانية والفرنسية.

وكان فردريك الثاني قد تولى عرش الإمبراطورية الرومانية سنة 612هـ/ ١٢١٥م، وأخذ شارة الصليب في تلك السنة لكي يضمن تأييد البابا إنوسنت الثالث له في عرش الإمبراطورية، بيد أنه كان عازفًا عن القيام بحملة صليبية؛ لأنه كان يطمح إلى بسط نفوذه على كل إيطاليا بما فيها أملاك البابوية ومدن الشمال التجارية الغنية؛ ولذلك أخذ يماطل في الوفاء بنذره الصليبي بأن يقود حملةً كبيرةً إلى الأراضي المقدسة، ولكن زواجه من يولاندا ابنة الملك الصليبي الراحل يوحنا بريين ملك عكا، جعل منه ملكًا على بيت المقدس ومسئولاً عن الصليبيين في الشرق.

وفي عام 624هـ / 1227م أراد فريدرك أن يلبي رغبة البابا، فأبحر من ميناء برنديزي (جنوب إيطاليا) على رأس حملة ضخمة ولكن الحمى أصابته، كذلك انتابت صفوف الجيش نوبة مرض

مدة قصيرة من الزمن أثناء انتظارهم لعبور البحر، فعاد فردريك لكي يسترد صحته، وأثناء ذلك مات هو نوريوس الثالث، وتولى جريجوري التاسع، فاعتقد أن فرديك يتمارض ويتعمد المراوغة فأصدر قرار حرمان من الكنيسة ضده. لقد فتح قرار الحرمان باب النزاع بين الطرفين الإمبراطور والبابا ولكن الإمبراطور أدرك أن مصلحته تقتضي القيام بحملة على بلاد الشام حتى يفوت على البابا إظهاره في صورة مسيحي عاق.

ويبدو أن ظروف الشرق هيأت الجو للإمبراطور للقيام بحملته، كذلك، فإن شخصية الإمبراطور وافقت عقلية الملك الكامل وشخصيته، إذ توثقت العلاقات بينهما في عصر اشتد فيه العداء بين ملوك الصليبيين والمسلمين، وازدادت الحركة الصليبية عنفاً، إلا أن شخصية الملكين وما كان يحيط بهما من ظروف كان لها أثر كبير في توثيق هذه العلاقة الودية.

قدوم الحملة الصليبية السادسة

أقلع الإمبراطور بحملته الصليبية في صيف 625هـ /1228م على رأس جيش صليبي صغير قوامه ستمائة فارس فقط، وأسطول هزيل، استجابة للدعوة التي تلقاها من الملك الكامل بمنحه القدس، ولم ينس أنه خرج من بلاده محروماً من الكنيسة، وأنه اعتمد وعود الكامل له بإعطاء بيت المقدس لذلك لم يحضر جيشاً قويا.

عرج فردريك الثاني على قبرص في طريقه إلى الشام، واستقبل استقبالاً طيباً، وأصبحت الجزيرة تابعة له وفقاً لقانون الإقطاع الحرماني، ثم أبحر في قبرص قاصداً عكا، فوصلها بعد أربعة أيام، ولعله من الغريب أن البابا أخذ يعمل على ألا ينجح الإمبراطور فردريك الثاني في احتلال بيت المقدس، حتى لا يكسبه ذلك شرفاً ونصراً بعد ما حرم، بل أن البابا حرض الملك الكامل على عدم تسليم المدينة المقدسة للإمبراطور. كما استغل الإمبراطور وفاة الملك المعظم سنة 624هـ / 1226م فقام سنة 625هـ / 1227م بالاستيلاء على صيدا التي كانت مناصفة بين المسلمين والإفرنج.

المفاوضات بين الملك الكامل والإمبراطور فردريك الثاني

عندما وصل الإمبراطور فردريك إلى عكا بعث رسوله إلى الملك الكامل، وأمره أن يقول له: "الملك يقول لك: كان الجيد والمصلحة للمسلمين أن يبذلوا كل شيء .. ولا أجيء إليهم والآن فقد كنتم بذلتم لنائبي –في زمن حصار دمياط– الساحل كله، وإطلاق الحقوق بالإسكندرية وما فعلناه وقد فعل الله لكم ما فعل من ظفركم، وإعادتها إليكم، ومن نائبي؟ إن هو إلا أقل غلماني، فلا أقل من إعطائي ما كنتم بذلتموه له".

وحار الملك الكامل في الموقف الذي يجب أن يتخذه من الإمبراطور لأنه هو الذي دعاه إلى الشام، وألح عليه في المجيء إليها ليناصره على أخيه المعظم، واعداً إياه بقسم من أملاك هذا الخصم، فلما وصل إليها لم يعد في حاجة إلى مساعدته لأن المعظم كان قد توفي، وغدت الأملاك الموعودة جزءاً من مملكته وأصبح من واجبه أن يدافع عنها، إن لم يكن بعامل الرغبة في المحافظة عليها فبعامل الحفاظ على سمعته أمام جماهير المسلمين يصف ابن واصل الموقف فيقول: "تحير الملك الكامل، ولم يمكنه دفعه ولا محاربته، لما كان تقدم بينهما من الاتفاق". ومن هنا أراد الكامل أن يطيل أمد المفاوضات بينه وبين فردريك.

وأدرك الإمبراطور أن موقف الملك الكامل أصبح على غير ما كان ينتظر، ولم يبق للإمبراطور فردريك الثاني أمام هذا الموقف الحرج سوى سلاح المفاوضة والاستعطاف واستخدام كافة وسائل الدبلوماسية للوصول إلى غرضه والعودة إلى الغرب الأوروبي مرفوع الرأس، فأرسل إلى الملك الكامل سفارة من رسولين تحمل له هدايا نفيسة من منسوجات حريرية وأواني ذهبية وفضية، مطالباً إياه بتحقيق وعده تسليم بيت المقدس، غير أن السلطان الكامل بادله بالرفض.

وإزاء تنكر الكامل لوعوده، ساء موقف فردريك الثاني لاسيما بعد أن جاءته الأخبار من الغرب بأن البابا استغل فرصة غيابه واعتدى على ممتلكاته، فأخذ يرجو الملك الكامل ويستعطفه، حتى قيل أنه كان يبكي في بعض مراحل المفاوضات وليس أدل على تذلل الإمبراطور من الكلام الذي جاء في رسائله إلى الملك الكامل: "أنا أخوك واحترام دين المسلمين احترامي لدين المسيح، وأنا وريث مملكة القدس، وقد جئت لأضع يدي عليها، ولا أروم أن أنازعك ملكك، فلنتجنب إراقة الدماء".

واستمر الإمبراطور في الاستعطاف، ولم تلبث الاستعطافات أن أتت أكلها وأفلحت في التأثير في الكامل.

وأثناء ذلك شرع فردريك الثاني في عمارة صيدا وقام بتحصين يافا، وكان ذلك بمثابة مظاهرة عسكرية، جعلت الملك الكامل يخشى قيام فردريك وبقية الجموع الصليبية بالشام بعمل حربي ضده، وهو الشعور الذي فسره المقريزي بقوله: "إن الكامل خاف من عائلته عجزاً عن مقاومته". وكان الدخول في حرب ضد الإمبراطور والصليبيين عندئذ تعني بالنسبة للملك الكامل وقوعه بين ثلاثة أعداء هم: (الصليبيين، وابن أخيه الملك الناصر داود من ناحية، والخوارزمية التي استنجد بها الناصر داود من ناحية ثانية). وفي ضوء هذه الحقائق كلها، وتحت تأثير رسول الملك الكامل في المفاوضات الأمير فخر الدين يوسف بن الشيخ، تنازل عن بيت المقدس.

صلح يافا .. هدنة العشر سنوات

أخيراً عقد الملك الكامل في ربيع الأول 626هـ/ فبراير 1229م اتفاقية مع الإمبراطور فردريك الثاني، عرفت بصلح يافا، وكتبت صيغة الاتفاقية باللغتين العربية والفرنسية، ووقع عليها الطرفان وحلفا على التزامها ووقع الإمبراطور عليها بعد أسبوع، فيما وقع على بنودها الملك الكامل في الوقت نفسه، على أساس أن يتسلم الإمبراطور مدينة القدس، وبيت لحم، وشريطًا من الأرض يصل بين عكا والقدس، ويبقى في حوزة المسلمين المسجد الأقصى وقبة الصخرة والمناطق الريفية، وفي المقابل يتعهد فردريك بمنع أي حملة صليبية طوال عشر سنوات من أوربا.

وسرعان ما وضعت هذه الاتفاقية موضع التنفيذ، فنودي بالقدس بخروج المسلمين منه، وتسليمه إلى الفرنج، وأعلن فردريك الثاني في جنوده: "أشكروا الله واحمدوه، إذ أتم عليكم نعمته، وإن إتمامها كان معجزة من الله وليس نتيجة الشجاعة أو الحروب، وما أتمه الله لم تستطع قوة من البشر على الأرض إتمامه لا بكثرة العدد، ولا بالقوة ولا بأية وسيلة أخرى".

وبعد أن تُوِّج فردريك الثاني ملكًا على مملكة بيت المقدس الصليبية عاد في رجب 626هـ/ يونيو ١٢٢٩م إلى أوربا بمكاسب لم تستطع أية حملة أخرى قبله أن تحققها منذ الحملة الأولى في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي، مع أنه كان يقود أضعف الحملات.

ويبدو جليًّا لنا أن هذه النتائج لم يكن لها أن تتحقق لولا تنازل الملك الكامل الذي فرَّط في أراضي المسلمين لصديقه الملك الصليبي بدون مقابل؛ وذلك حتى يُحسِّن فردريك وضعه في أوربا. ولا شك أن هذه الأحداث تعكس طبيعة متهاونة للملك الكامل في حقوق المسلمين، تُكرِّس الصورة التي ظهرت خلال الحملة الخامسة عندما انسحب تاركًا العادلية ودمياط للصليبيين.

موقف العالم الإسلامي من تفريط الكامل

أما العالم العربي الإسلامي فقد رأى –بحق– أن الهدنة التي عقدها الكامل الأيوبي كارثة حقيقية. وكان رد الفعل الشعبي عنيفا ضد السلطان الذي بعث سفراءه إلى كل مكان لتبرير فعلته. وقد علق ابن الأثير على ذلك بقوله: "واستعظم المسلمون ذلك وأكبروه ووجدوا له من الوهن والتألم ما لا يمكن وصفه. يسر الله فتحه وعوده إلى المسلمين بمنه وكرمه، آمين".

وقال ابن الأهدل: "وللكامل هفوة جرت منه –عفا الله عنه– وذلك أنه سلمَّ مرة بيت المقدس إلى الفرنج اختياراً نعوذ بالله من سخط الله وموالاة أعداء الله".

السلطان الصالح نجم الدين أيوب

وفي سنة ٦٣٥ هـ/ ١٢٣٩م مات السلطان الكامل، وبعد عدة تقلبات في الأحوال اعتلى عرش السلطنة في القاهرة ابنه السلطان الصالح نجم الدين أيوب سنة ٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م. وفي غمرة الحرب الأهلية والمنازعات التي اندلعت بين الأيوبيين في بلاد الشام ومصر والجزيرة، والتي انتهت باعتلاء الصالح أيوب عرش مصر، انتهت الهدنة ذات السنوات العشر.

معركة غزة

وكان البابا جريجوري التاسع Gregory IX يستعد لهذا الموقف منذ صيف سنة 637هـ / 1239م، ولم تلق جهوده استجابة كبيرة سوى في فرنسا حيث تجمع عدد من نبلائها تحت زعامة تيبالد الشامباني ملك نافار Theobald de Champagne، وبعد رحلة عاصفة في الموسط وصلت هذه الحملة إلى عكا في أول سبتمبر. وفي غضون أسابيع قليلة تجمع جيش قوامه حوالي ألف من الفرسان. وفي نوفمبر من السنة نفسها (637هـ / 1239م) التقى هذا الجيش مع الجيش

المصري قرب مدينة غزة في معركة قاسية كانت الهزيمة فيها من نصيب الصليبيين الذين تفرقوا بين أسير وقتيل.

استعادة الصالح أيوب بيت المقدس

كان التنازل عن بيت المقدس صدمة مزلزلة للمسلمين، الذين ترحَّموا على صلاح الدين وجنوده المجاهدين الذين بذلوا أرواحهم من أجل تحريره؛ ليأتي ذلك الملك الخانع الكامل الأيوبي ليتنازل عنه لشرذمة من الصليبيين دون أي مقاومة. ومن ثَمَّ كان من أهم آمال المسلمين إعادة تحرير الأقصى.

وقد قيَّض الله للأمة السلطان المجاهد نجم الدين أيوب، الذي عمل على تحرير المقدسات؛ واستطاع بفضل الله أن يحرِّر المسجد الأقصى بمعاونة جنوده الخوارزميين في 3 من صفر 642هـ / 11 من يوليو 1244م؛ ليتحرر المسجد الأقصى نهائيًّا من أيدي الصليبيين، ولم يجرؤ جيش صليبي أن يدخلها مدة سبعة قرون، حتى دخلها الإنجليز خلال الحرب العالمية الأولى عام 1914م، وقبل أن يحتلها الصهاينة عام 1948م.

وقد كان الملك الصالح نجم الدين حاكمًا صالحًا، ومجاهدًا في سبيل الله، يحب العلم، ويقدّر العلماء، وهو مَن استضاف سلطان العلماء العز بن عبد السلام رحمه الله بعد أن ضيَّق عليه الخائن الصالح إسماعيل سلطان دمشق، وكان نجم الدين يلتزم برأي العز، ولا يخالفه؛ لذا لمَّا أعلمه بوجود حانات للخمور أسرع بإغلاقها. وبالجملة كان نجم الدين أيوب أفضل حاكم أيوبي بعد صلاح الدين.

وفي سنة ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م تواترت الأنباء عن قرب قدوم حملة جديدة تحت راية الصليب ضد مصر بقيادة لويس التاسع Louis IX ملك فرنسا بهدف احتلال مصر، وتلك كانت الحملة الصليبية السابعة.

المراجع:

- قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية، عالم المعرفة (149)، مايو 1990م.

- علي الصلابي: الأيوبيون بعد صلاح الدين، الناشر: دار المعرفة للطباعة والنشر، الطبعة: الأولى.

قيام الممالك الصليبية

اقام الصليبيون بعد ان نجحوا في الاستيلاء على اسيا الصغرى وبلاد الشام عقب الحملة الصليبية الأولى عدد من الممالك مثل امارة الرها - انطاكية - مملكة بيت المقدس وامارة طرابلس.

1-امارة الرها

كانت الرها في الفترة أي بعد الفوز الكبير للقوات الصليبية على قوات السلاجقة واحتلال مدينة نيقيه تخضع لحكم (طوروس بن هتوم الاريتري) الذي حصل على سند شرعي في حكم الرها من الامبراطور البيزنطي وظلت الرها مهددة من قبل السلاجقة الذين كانوا يحيطون بها الامر الذي دفع بحاكمها الأرمني ان ينظر بعين الرضا الى وصول الصليبيين الى هذه الديار ولا يخفى على احد موقف الأرمن المسيحيون الذين كانوا يشكلون الأكثرية من بين سكان اسيا الصغرى وشمال الجزيرة الفراتية ومشارف بلاد الشام وهذا الامر شجع الصليبيين إذ فتحوا لهم أبواب الدخول الى الوطن العربي بل ساندوهم في عملياتهم الحربية وقد قام الأمير الصليبي (بلدوين البولوني) بقيادة الصليبيين بأتجاه الرها فأستولى على عدد من المواقع والمدن والقلاع في شمال الجزيرة بمساعدة الأرمن الذين نظروا الى الصليبيين نظرة ودية على اعتبارهم من جنسهم للتخلص من حكم السلاجقة المسلمين فسيطروا على (تل باشر) فلما بلغت اخبارهم حاكم الرها حتى ارسل الى قائد الصليبيين بلدوين سنة 1098م يدعوه للحضور الى الرها لكي يتقوى بهم على حكم المسلمين إذ ان الرها كانت مهددة من قبل حاكم الموصل (كربوقا) فلبى بلدوين نداءه ودخل المدينة وسط

استبسال حافل من قبل حاكم المدينة ورجال الدين الأرمن وكان حاكم الرها يخشى على مملكته من الضياع لأنه لم يخلف وريثاً له في حكم الامارة وفي خضم هذه الظروف فقد تبنى حاكم الرها (ثوروس) ونودي له وريثاً على الرها وجرت مراسيم التبني وفق تقاليد الكنيسة وبحكم هذا التبني اصبح الصليبيين هم أصحاب الحل والعقد في الرها. وهذا الامر أدى الى انقسام سكان الرها بين مؤيدين ومعارضين كما تفاقم الوضع الاقتصادي من جراء فرض الضرائب والشدة في جبايتها.

ونتيجة لهذه الظروف قامت ثورة عارمة سنة 492هـ/1098م انتهت بمقتل ثوروس وأصبحت مقاليد الأمور بيد بلدوين البولوني قائد الحملة الصليبية الذي أصبح سيداً وحاكماً على الرها وحقق هدفه بتأسيس اول امارة صليبية في المشرق وأصبح لها شأن كبير في الفترة اللاحقة نتيجة لموقعها المتميز فأصبحت بمثابة حامية عسكرية فاعلة للتواجد الصليبي في بلاد الشام من أي هجوم يشن نحوها من جهة الجزيرة الفراتية.

ونفهم من هذا ان الاستيلاء على الرها قطع الطريق امام المسلمين في العراق بشكل عام والموصل بشكل خاص وعلى المسلمين في بلاد الشام وبهذا استطاع الصليبيون ان ينفردوا بمدن الشام الواحدة تلوا الأخرى وصولاً الى بيت المقدس.

ولعل من اهم اعمال القائد الصليبي بلدوين في الرها تتمثل: -

أ- توسيع امارته فأستولى على سيماط من ايدي السلاجقة وعلى حصن سروج الواقع على الطريق المؤدي الى حلب وسيطر على البيرة سنة 493هـ/1099م التي تقع على نهر الفرات وتحتل موقع عسكري متميز.

ب- عمل على دمج الصليبيين بالأرمن محاولاً القضاء على الفوارق فيما بينهم وبهذا تكون مملكة الرها اول مملكة في المشرق العربي كان لها الدور الفاعل في رفد الحملات الأخرى وفي تفتيت القوة الإسلامية.

2-امارة انطاكية

بعد ان نجح الصليبيون في الاستيلاء على مدينة نيقيه من ايدي السلاجقة سارت جيوشهم بأتجاه انطاكية وضمت جيوشهم كبار الامراء الصليبيون ويصحبهم المندوب البابوي (ادهمار)

ووصلت اليها في 21 تشرين الأول 1097م وكانت انطاكية تخضع لحكم الأمير (ياغي سيان) المعين من قبل السلاجقة وكان هذا فارساً كفوء مقتدراً وكانت المدينة محصنة جداً فقام الصليبيون بفرض حصاراً شديداً عليها فعسكر القائد الصليبي (بوهمند) مع 400 فارس امام احد أبواب المدينة وحاصرت القوات الأخرى المدينة من جهاتها المختلفة وعمد الأمير ياغي سيان الى اخراج السريان والارمن بحجة حفر خندق حول المدينة ومنعهم من دخول المدينة بغية تأمين الجبهة الداخلية.

فأتجه هؤلاء الى الصليبيين وانخرطوا في صفوفهم وقد استمر الحصار براً وبحراً قرابة تسعة اشهر من سنة 490هـ.

ومما زاد من ضعف الجبهة الإسلامية الخلاف الحاصل بين الأمير ياغي سيان وسيده رضوان بن تتش الى جانب الخلافات القائمة بين امير حلب وامير دمشق وقد حاول ياغي سيان الحصول على الامدادات من جيرانه المسلمين بعد ان اشتدت الفاقة به فأرسل الى ملك دمشق وامير حمص واتابك الموصل والى سلاجقة فارس والعراق والخليفة العباسي يستنجدهم ويحثهم على الجهاد وقد وصلت بعض الامدادات الإسلامية واصطدمت مع القوات الصليبية عند نهر العاص سنة 1097هـ وأوقع الصليبيون فيهم الهزيمة ومما تجدر الإشارة اليه ان الظروف السياسية للمنطقة العربية كانت سلبية وغير مشجعة للتصدي إذ اثابت الفرقة سائر المسلمين وقد تحالف الفاطميين مع الصليبيين بغية الإيقاع بالعباسيين فاتفقوا على ان تكون انطاكية للصليبيين وبيت المقدس للفاطميين وهذا الاتفاق له مردودات إيجابية بالنسبة للصليبيين إذ استفادوا من العرض الفاطمي على اعتباره خطوة أولى.

وعاود ياغي سيان مرة أخرى الى طلب النجدة من القوة الإسلامية لإنقاذ انطاكية فأجتمعت قوات إسلامية كثيرة ند منطقة حادم شرق انطاكية وقد رسمت خطة لمواجهة الصليبيين تتمثل بأن تقوم الجيوش الإسلامية القادمة بمهاجمة الصليبيين المحيطين بمدينة انطاكية وفي ذات الوقت يخرج ياغي سيان من مدينة انطاكية ويهاجم الصليبيين من الخلف وتصبح القوات الصليبية بين قوتين إسلامية غير ان النصارى في حلب وحارم من السريان والارمن الذين كانوا يتجسسون

للصليبيين قد ابلغوا الصليبيين بتفاصيل الخطة لذلك عمد الصليبيين الى مهاجمة الجيوش الإسلامية المجتمعة في مدينة حارم وقضوا عليها واستولوا على المدينة وفشلت الخطة ان طول فترة الحصار المضروب على جيش ياغي سيان كان قد انهك المدينة لعدم وصول الامدادات فضلاً عن النقص الحاصل في المؤنة اما الصليبيون فكانت تصلهم الامدادات عن طريق البحر من اوربا وفي هذا الوقت بالذات وصلت امدادات بشرية واسلحة كثيرة من بينها آلات الحرب والحصار واستخدمت الآلات ودارت رحى معركة ضاربة بين الطرفين وقد اظهر ياغي سيان شجاعة نادرة في مقاتلة الصليبيين الا ان المدينة لم تسقط لأنها كانت محكمة جداً على الرغم من صمود المدينة.

اما سقوط المدينة كانت نتيجة الخيانة من قبل القائد الأرمني المدعو (فيردز) والذي اعتنق الإسلام وقربه ياغي سيان اليه وأصبح مسؤولاً عن حماية وحراسة أحد أبواب المدينة. وقد قام بمراسلات سرية مع الصليبيين وابدى استعداده لتسليم المدينة وتم الاتفاق مع القوات الصليبية ففتح لهم أحد أبواب المدينة ودخل الصليبيون وقاتلوا الحرس وقاموا بأرتكاب مجزرة وحشية داخل مدينة انطاكية وقد فوجئ ياغي سيان بهجومهم هذا فهرب خارج مدينة انطاكية وسقطت المدينة سنة 491هـ.

وكان لسقوطها أثر كبير في تداعي المدن الأخرى واثارة الفزع والخوف من القوات الصليبية فما ان سمع (كربوقا) امير الموصل بسقوطها حتى سار على رأس جيش لمواجهة القوات الصليبية.

3-مملكة بيت المقدس

يعد بيت المقدس من اهم المدن والكيانات السياسية في الشرق الإسلامي وعندما احتلها الصليبيون عدوها أبرز مملكة صليبية في الشرق الإسلامي إذ تولت السيادة على الامارات الصليبية الأخرى.

فيحتل بيت المقدس مكانة دينية مرموقة ومقدسة من قبل المسلمين إذ انها أولى القبلتين وثالث الحرمين اما بالنسبة للمسيحيين فأنها ذات قدسية كبيرة على اعتبارها مدينة شهدت ولادة

ومبعث وحياة السيد المسيح عليه السلام هذا فضلا عن أهمية المدينة الاستراتيجية إذ انها تعد اضخم المعاقل والحصون في عالم العصور الوسطى كما انها تتميز بموقع مهم وهذه الأمور دفعت الصليبيين الى ان يعقدوا مجلساً بكنيسة القديس بطرس في انطاكية في سنة 492هـ واتفقوا فيه على اجتياح بيت المقدس وبالفعل سارت جموعهم بأتجاه بيت المقدس وتم الاستيلاء عليه في (22 من شهر رمضان سنة492هـ/1099م) بعد ان قتلوا الاف الأبرياء من المسلمين من دون ان يفرقوا بين رجلاً او امرأة وطفلاً وشيخ ولم يراعوا حرمة المسجد الأقصى وارتكبوا ابشع المجازر الوحشية اتجاه السكان الامنين وقد قدر المؤرخين المسلمين والنصارى من قتل في المسجد الأقصى بحدود سبعين الف مسلم ناهيك عن مقاتلهم في الأماكن الأخرى وبعد احتلالها صارت تدار من قبل الممثل البابوي على اعتباره الزعيم الروحي للحملة وبعد وفاته عين (جودي فري) حاكماً عليها واتخذ لقب حامي بيت المقدس ثم قام بالتوسع على حساب المدن القريبة مثل (ارنسون- الهلال – طبرية) وحاول ان يستولي على مدينة عكا وضرب عليها حصاراً عسكرياً الا ان اردوه قتيلاً بسهم إسلامي أصابه في ذلك الحصار فتولى الزعامة من بعده اخاه بلدوين الذي قدم من امارة الرها فأجتاح مدينة عكا سنة 497هـ وسقوط بيت المقدس سيطر على سائر المدن الفلسطينية وانتاب المسلمين الرعب والخوف من القوات الصليبية فأنساح اهل المدن الى البلاد المجاورة واستسلمت من أخرى للصليبيين مثل نابلس وقيسارية والرملة وفرض الصليبيين سيطرتهم على مدينة عسقلان بعد معركة عنيفة مع الجيش الفاطمي الذي يقوده (الأفضل بن بدر الجمالي)

4-مملكة طرابلس

كانت مدين طرابلس تحت حكم فخر الملك ابي علي بن عمار وقد حاول هذا الحاكم الاحتفاظ بالمدينة عن طريق التقرب من الصليبيين والدخول في احلاف سياسية معه الا ان الصليبيين كانوا مصممين على اجتياح المدينة وقد واجهت هذه المدينة الخطر الصليبي الذي كان يقوده (ريموند الصنجيلي) سنة 493هـ/1099م ولكن محاولاته الاوى باءت بالفشل فقام سنة 497هـ بالزحف من جديد نحو طرابلس فأقام معسكر في ارباض المدينة وشرع في تشييد قلعة تبعد ثلاثة اميال عن المدينة وتم استكمالها في السنة الثانية وسميت بقلعة (الصنجيل) وضرب

الحصار على طرابلس واحكم ريموند سيطرته على الطريق المؤدية لها وقد عجز الصليبيين من السيطرة على المدينة فتلقوا المساعدات من الاساطيل الإيطالية سواءً امدادات بشرية واسلحة والات الحصار فأجتاحوا المدينة بطرق غير حربية حيث ان سقوط المدينة كان عن طريق الغدر والخيانة فتسلم (بلدوين الأول) ملك بيت المقدس المدينة بموجب معاهدة عقدت بينه وبين شرف الدولة والي المدينة الفاطمي فدخلها الصليبيون ودمروا معالمها الحضارية واحرقوا مكتبتها التي تعد من ارقى المكتبات في العالم آنذاك وعين براتزان بن ريموند اميراً عليها تابعاً لمملكة بيت المقدس.

ومن الجدير بالذكر ان الاهتمام الصليبي المتزايد بهذه المدينة فتأتي من كون طرابلس تمثل المعبر الرئيسي الى مملكة بيت المقدس وتمثل حاجز أمني لمملكة بيت المقدس هذا وفضلاً عن غنى المدينة وكثرة ثرواتها لما تتمتع بها من موقع متميز جعلها مدينة تجارية بالدرجة الأولى.

دور عماد الدين زنكي في مواجهة المد او التحدي الصليبي

ان عماد الدين يمتلك رؤية عسكرية جعل أولى أهدافه تحرير الرها فجهز جيشه وشحذ هممهم واعلن انه سائر الى مدينة (آمُدْ) لمحاصرتها وانهمك في صراع وحروب في منطقة ديار بكر لكي يظهر للصليبيين ان مقصده ليس الرها وهذا الامر قاد بالأمير الصليبي جوسيلين الى مغادرة الرها فما ان سمع عماد الدين عن طريق عيونه وجواسيسه المنبثين حول مدينة الرها حتى اسرع بالهجوم على مدينة الرها وضرب عليها الحصار وافتتحت المدينة عنوة على الرغم من حصانتها وامتناعها وقد عامل عماد الدين زنكي النصارى من الأرمن وغيرهم معاملة حسنة وقد اشركهم في الكثير من الأمور حتى انهم كانوا يتمتعون بشبه الاستقلال الذاتي أي انه سمح لهم بممارسة الطقوس الدينية وكان بهذا العمل والهجوم المباغت والسريع الأثر الكبير في عدم وصول الامدادات الصليبية للأمير جوسيلين من بقية الممالك واعتبر فتح المسلمين للرها بمثابة فتح الفتوح على اعتبار ان هذا الفتح جاء بعد تداعيات كثيرة فشحذت الهمم وارتفعت معنويات المسلمين بعد انكسارها وساروا بتهاون لتحرير سائر الأراضي العربية أي ان هذه المعركة كانت بمثابة الافاقة والصحوة الإسلامية من نوم عميق وفي ذات الوقت فأن هذه المعركة كانت قد اثرت تأثير كبير على معنويات القادة الصليبيين فكل واحد منهم ادرك ان نهايته اصبحت وشيكة وبدأوا يستنجدون

بأوروبا لكي ترسل لهم الرجال والسلاح والأموال وقد انعم الخليفة والسلطان السلجوقي على عماد الدين زنكي بالكثير من الألقاب وبعد هذه المعركة قام عماد الدين زنكي بمساعي عسكرية بغية تحجيم الصليبيين فأستولى على الطرق الممتدة من الموصل الى حلب وعلى بعض المناطق التي كانت لهم وحرر حصن سروج الذي يعد واحد من اهم الحصون الواقعة شرق نهر الفرات وحاصر قلعة البيرة وبهذا يكون عماد الدين زنكي قد أزال الوجود الصليبي على كافة القلاع والأراضي الواقعة شرق نهر الفرات وتجهز ثانية لأجتياح مدينة دمشق التي كانت بيد اميرها (معين الدين أنر) الذي كان متحالفاً مع الصليبيين.

وبالفعل سار نحو دمشق وأطبق الحصار على قلعة (جعبر علي) التي تقع في الطريق واثناء الحصار الذي فرضه اغتيل عماد الدين زنكي وبأغتياله سُر الصليبيين غاية السرور وبدأوا يخططون مرة ثانية الا ان محاولاتهم فشلت بجهود جيش عماد الدين ومساعدة بعض الامراء لهذا الجيش ومن بعده تزعم الجبهة الإسلامية قائد فذ سار على خطى عماد الدين زنكي الا وهو ابنه (نور الدين محمود).

المقاومة في عهد نور الدين محمود

بعد استشهاد عماد الدين زنكي سنة 541هـ اقتسم ولديه ممتلكات ابيهم فأصبحت اتابكية حلب من حصة نور الدين محمود في حين أصبحت الموصل من حصة سيف الدين

وقد قاد نور الدين محمود جيوش ابيه وكان عمره آنذاك ثلاثين عاماً فلم يكن صغيراً بحيث تتلاعب بمصيره ايادي الامراء ولا كبيراً بحيث تعجزه ظروف المنطقة التي تتطلب الكثير من الجهد والحركة إذ كان مصمماً على السير بخطى والده في مواجهة الصليبيين كما ان مركزه في حلب املى عليه ان يتأهب لتلك المواجهة إذا ما عرفنا بأن مدينة حلب تقع على مقربة من الامارات الصليبية في الشام مثل طرابلس وانطاكية وبيت المقدس وقد تميز نشاط نور الدين الجهادي بأتخاذه ثلاثة منطلقات أساسية في التحدي الصليبي وجمع الشمل العربي تمثلت بـ:

1. اتباع سياسة الردع
2. توحيد جبهة المواجهة

3. الهجوم المؤقت

وقد عمل على تحقيق هذه الأمور بصورة متداخلة فتراه مرة يشن هجوم على الصليبيين وفي ذات الوقت يزحف من جبهته ويدعو المجاهدين للألتحاق به ومرة يتبع أسلوب المهادنة والهجوم المؤقت. فبالنسبة لعملية الردع تمكن نور الدين منذ الأيام الأولى لحكمه بصد هجمات امير الرها السابق (جوسيلين) وهزمه قبل ان يتمكن من احتلال الرها وعزز نور الدين موقفه في المدينة وفي ذات الوقت نلاحظ ان حاكم طرابلس قد عمد الى ازعاج واشغال نور الدين عن طريق هجمات شنها على كل من حلب وحماه فأرسل نور الدين قوة عسكرية بقيادة اسد الدين شيركو فأستطاع هذا من إيقاع الخسائر بالقوة الصليبية وضم بعض الحصون الى اتابكية حلب وبدأ يدركون قوة نور الدين محمود وتصميمه على قتالهم وفي ذات الوقت عمل نور الدين محمود على ترصين الجبهة الداخلية وتحسين علاقاته مع المسلمين ومع الحكام والامراء سواء في الشام او خارج الشام بغية اسناده من حربه مع الصليبيين فوطد علاقته مع سلاجقة اسيا الصغرى (الروم) عن طريق المصاهرة إذ تزوج ابنة (مسعود بن قلج أرسلان) سلطان سلاجقة الروم كما ادام العلاقة والمودة مع اخوته وعلى وجه الخصوص (سيف الدين غازي) ومن ثم ولده (قطب الدين مودود) في الموصل وضم منطقة سنجار الى نفوذه سنة 544هـ كما فكر نور الدين بضم مدينة دمشق لما تتمتع به هذه المنطقة او المدينة من موقع استراتيجي بسبب قربها من مدينة حلب والقدس التي كان يرمي الى تحريرها وقد حاول ان يستولي على المدينة الا انها اعتصمت بوجهه فلذلك عمد الى اتباع الطرق الدبلوماسية بغية كسب سكان وحاكم دمشق الى جانبه فعندما تعرضت دمشق الى هجمات صليبية سنة 543هـ قام نور الدين محمود بتسيير قواته لمقاتلة الصليبيين والدفاع عن المدينة كما تزوج من ابنة قائد الجيش أنر لكي يديم ويؤلف العلاقات بينه وبين دمشق وفي سنة 549هـ سيطر الصليبيين على مدينة عسقلان وبما ان الطريق الى عسقلان سوف يمر عبر مدينة دمشق لذا فكر نور الدين في شق التلاحم ما بين امير دمشق وبين القادة العسكريين فعندما وهنت قوة المدينة قام نور الدين محمود بضمها الى نفوذه فأصبحت معظم بلاد الشام بيده بأستثناء الأماكن والممالك التي كانت بيد الصليبيين

وبعدها نلاحظ جهود نور الدين محمود الرامية لضم مصر ادراكاً منه بأهمية موقع مصر وبأهمية مشاركة المصريين في الدفاع عن البلاد العربية ضد الهجمات الصليبية أي من هذا نفهم ان سياسة نور الدين محمود الرامية لتوحيد الجبهة العربية عن طريق الدبلوماسية بغية ترصين الجبهة الإسلامية ونحن نعرف

معركة حطين

ذكرنا في المحاضرة السابقة جهود القائد صلاح الدين الايوبي الجبارة في توحيد صفوف العرب المسلمين بغية مواجهة المد الصليبي المتمثلة في توحيد الصف العربي واستنفار المجاهدين من شتى البقاع الإسلامية فتجمعت جموعهم عند صلاح الدين الايوبي في منطقة (عشترا) وهو موضع بحران من اعمال دمشق سنة 583هـ. وبلغ تعدادهم بحدود 12,000 مقاتل وسار بهم قاصداً الصليبيين. وفي ذات الوقت تجمعت جموع الصليبيين من الامارات الساحلية والممالك الصليبية واطرافها حتى بلغ تعدادها بحدود 50,000 مقاتل والتقى الجيشان عند منطقة حطين الى الغرب من طبرية في شهر تموز من سنة 583هـ.

وقد جعل صلاح الدين جيشه حائلاً او حاجزاً بين القوات الصليبية وبين بحيرة طبرية بغية اضعافهم ومنعهم من الوصول الى الماء وتجلت قدرة وكفاءة القائد صلاح الدين الايوبي في التخطيط المسبق للمعركة وفق استراتيجيات حدد رؤيته لأهمية هذه المعركة إذ ادرك خطورة عامل الزمان والمكان في حسم النتيجة لصالحه وقد روت لنا كتب التراث عن استدراج صلاح الدين الايوبي للقوى الصليبية لفترة طويلة تقارب الثلاثة اشهر دون الدخول في صدام عسكري لأنه كان يسعى لتحدي الزمن بغية الاستفادة منه في حسم المعركة وقد حدد ان تكون ساعة المعركة في الأيام الأولى من شهر تموز المعروف بشدة حرارته كما حدد المكان، ونحن نعرف تحديد الزمان والمكان بالنسبة للقائد تعطيه ارجحية التفوق على خصمه فجعل ساحة المعركة أي منطقة حطين وهي اشبه بوادي محاط بسلاسل جبلية وهي اشبه الى حد ما ايضاً بعنق الزجاج وقد جعل من بحيرة طبرية بعيدة عن متناول خصومه كما انه عمد الى فرش ساحة المعركة بأغصان المزروعات وخاصة الحنطة لما لها من أثر في انعكاس اشعة الشمس على عيون المقاتلين لأنها تتصف باللون الأبيض وله قدرة على عكس الاشعة وعمد الى رشها بالنفط وهذا كان له تأثير سلبي على خصومه القادمين من اوربا ذات الأجواء الباردة وقد امر جيشه بالانسحاب التدريجي امام الصليبيين حتى ادخلهم في ساحة المعركة (حطين) التي حددها ومن ثم اطبق على عنق الزجاجة لكي يمنع خروج الصليبيين من ساحة المعركة فعندما احتدمت المعركة بينه وبين

الصليبيين بعد ان حرمهم من الماء وانتابهم العطش الشديد من قسوة الحر امر جيشه بتسلق تلك الجبال ورمي الصليبيين بالأسهم والنبال وضرب بالمنجنيق ساحة المعركة واوقد النار تحت اقدام الغزاة واستطاع ان يحقق نصراً كبيراً على الجموع الصليبية.

وتعد هذه المعركة من المعارك الحاسمة جداً في التاريخ الإسلامي إذ انها تمثل بداية التصدي الفاعل للحروب الصليبية وقد أدخلت الفزع والخوف في قلوب الصليبيين واضعفت من امكانياتهم في الامارات الصليبية وعدت هذه المعركة هي بمثابة الطريق الى بيت المقدس وعقب هذه المعركة عمد الصليبيين الى مراسلة امراء وملوك وحكام اوربا يستدعونهم ويطلبون معونتهم لمواجهة صلاح الدين الايوبي وبالفعل استجابوا لندائهم فأنطلقت الجموع الصليبية الثالثة بأتجاه لشرق وبعد هذا ارتفعت معنويات العرب المسلمين وسمي صلاح الدين الايوبي بـ(الناصر) فبدأ يستجمع الجيوش من جديد وسار لدك معاقل الصليبيين في بلاد الشام فحرر (عكا – قيسارية – عصفور – نابلس – عسقلان) ثم ارسل مجاميع من جيشه لتحرير المدن الساحلية ودك الحصون والمعاقل المجاورة لها ولم يبقى امام صلاح الدين الايوبي سوى المسير الى بيت المقدس وبالفعل قصد بيت المقدس فعندما ترآت له واقترب من اسوارها عرض السلم على الصليبيين كعادته ولكنهم رفضوا هذا المبدأ فحاصر المدينة وبدأ بضربها بالمنجنيق في شهر رجب من سنة 583هـ، وهذا الامر (امر الحصار) كان له اثر كبير في اشتداد الضائقة الاقتصادية في بيت المقدس الى جانب انخفاض معنوياتهم في المواجهة بعد ان سمعوا عن صلاح الدين وانجازاته في معركة حطين وبراعه خططه العسكرية كما ان هذا الامر اثار الصراعات المذهبية داخل بيت المقدس وبعد حصار طويل استطاع صلاح الدين الايوبي من اقتحام المدينة واستعادها من قبضة الصليبيين وحررها بعد رضوخها للصليبيين دام قرابة تسعين عاماً. ولعل أبرز الأمور التي دفعت صلاح الدين الايوبي لتحرير هذه المناطق هي: –

كثرة تجاوزات الصليبيين على القوافل التجارية وعلى السكان الامنين في المدن والقصبات والقرى. ولعل تجاوزات (ارناط) صاحب الكرك على قوافل الحجاج واعلانه بأنه سوف يجتاح قلب

الجزيرة العربية وينسف قبر الرسولα كان المحرك الأساس لصلاح الدين لتأديب هذا القائد الصليبي.

وبالفعل قام ارناط بملاحقة الحجاج ودخل أراضي شبه الجزيرة العربية وقد أرسل صلاح الدين جيشاً لمنعه وثنيه عن عزمه وتحقق له ذلك وفي بيت المقدس عندما حررها صلاح الدين الايوبي توقع الصليبيون بأن صلاح الدين سوف يعاملهم بقسوة ثأراً للدماء التي استبيحت من المسلمين عندما دخلها الصليبيين لأول مرة قبل تسعين عاماً عندما سفكوا الدماء حتى ان المؤرخين وصفوا كثرة الدماء بأن حوافر الخيل كانت تتزحلق فيها. وقد تعامل صلاح الدين مع سكان المدينة معاملة حسنة نابعة من صميم المبادئ الإسلامية فلم يتعرض لطفل او امرأة او شيخ كبير او رجل اعزل وأعلن بأن بيت المقدس سوف تكون مجمع الأديان وأعطى حرية التعبد لأصحاب هذه الأديان واخذ الفدية من القادرين على دفعها مقابل إطلاق سراحهم ولكن في ذلك الوقت لم يقبل الفدية من (ارناط) ولم يقبل الصفح عنه وانما بارزه وقتله لكي يكون عبرة لغيره